مجموعة قصصية

# كرستال

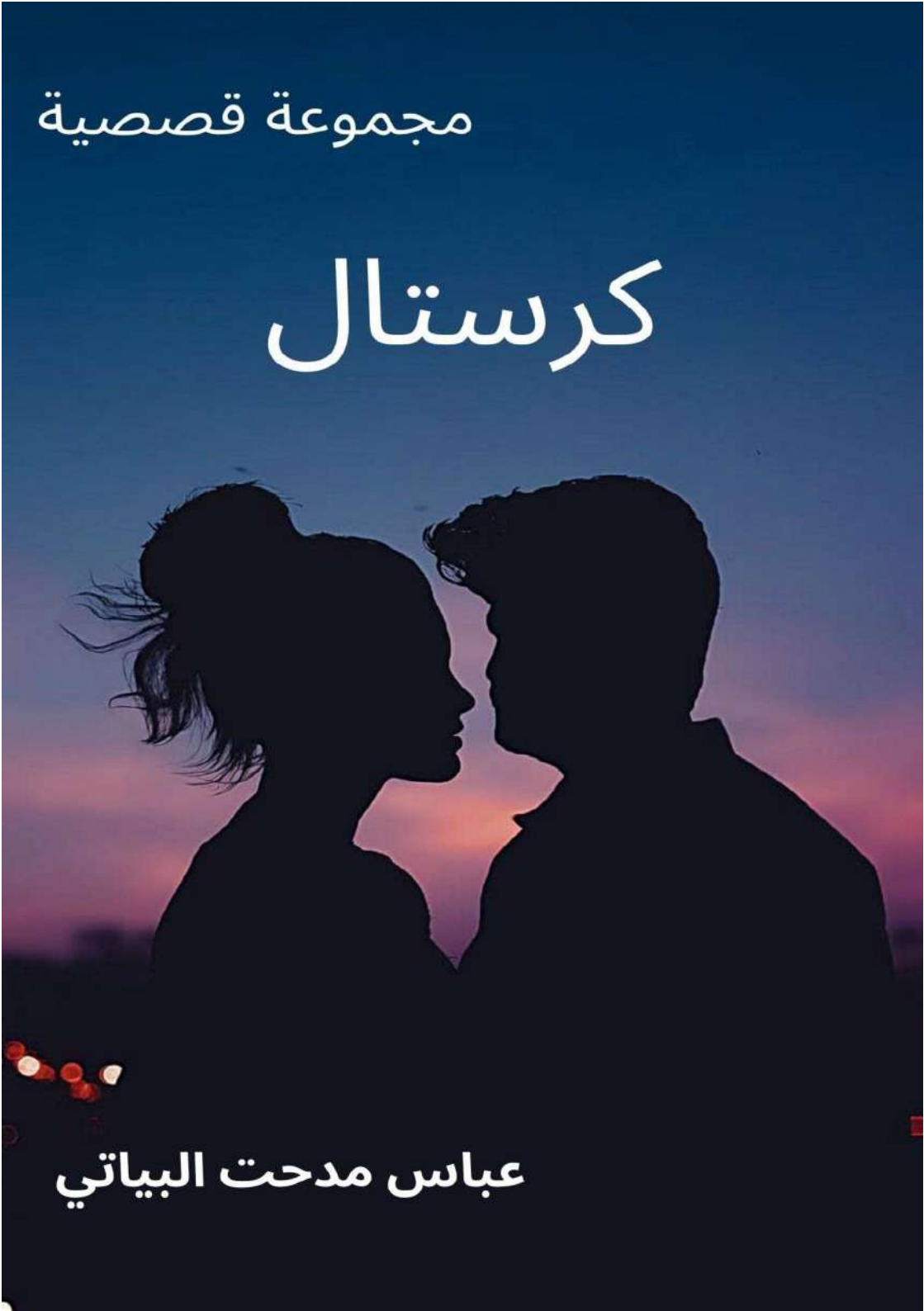

عباس مدحت البياتي

# كرستال

## مجموعة قصصية

# إهداء

أهدي هذه المجموعة الشيقة من القصص إلى أبني الغالي
وزوجتي العزيزة وللقراء

**الكاتب: عباس مدحت البياتي**

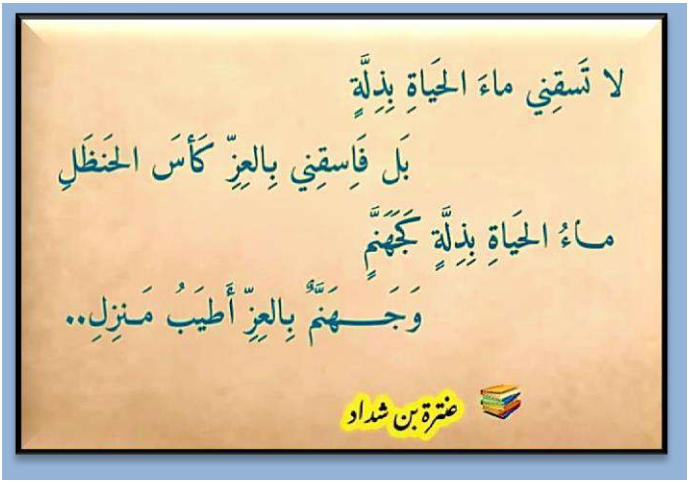


دار الفن للنشر الإلكترونية لمختلف الكتب
المانيا - كيمنتس
M0001@MYYAHOO.COM
******
DAR AL-FAN FOR ELECTRONIC
PUBLISHING OF VARIOUS BOOKS
GERMANY - CHEMNITZ

## القصص

---


1- **إريام** .....5

2- **كرستال**.....12

3- **وفاء كلب**.....18

4- **الدنيء**.....25

5- **الفراشة**.....32

6- **الصورة**.....38

7- **الوفاء**.....45

8- **آخر المشوار**.....55

9- **زيارة صديق**.....62

10- **مكتب السفريات**....74

11- **القدر** .....95

12- **الكوب** .....102

13- **الكرة** .....110

# إريام

جلست باكرا قرابة السادسة صباحا، كدر ما يغشي جسدي، كنت لا أزال اشعر بسماجة النوم في راسي، مسكت هاتفي اتصفح الرسائل التي دائما ما يرسلها لي أصحاب صلاة الفجر، وإذ بي أجد مجموعة رسائل من هاتف غريب. فتحت الرسائل وكانت كالآتي:....

( أنا إريام رفيقة مناف، الهجرة منحتني قرار رفض الإقامة، واني بحاجة لرقم المحامي الذي تراجعه، لأقدم طعن ضد قرار الهجرة قبل أن ينتهي الأسبوع).

عرفت بأنها حصلت على رقم هاتفي من قبل صديقنا المشترك مناف، بدوري كتبت لها رقم هاتف المحامي، في الوقت الذي مدحته لجديته وشطارته، وذكرت لها بأنه موصى به من قبل منظمات إنسانية، وطلبت منها أن لا تتأثر بقرار الرفض؛ فقرار الرفض متفق عليه بين دول أوربا ضد بعض الجنسيات من ضمنهم العراقيين.

جاءني رد منها بعد ساعة من الزمن تشكر مساعيي لمساعدتها. ثم أتصلت لتستفسر عن اتعاب المحامي وأن كان هناك محام عربي يكون افضل من وجهة نظرها، كان

صوتها يخنس بارتباك وقلق واضح. صرت أشرح لها وأبين لها خطأ تفكيرها، فقلت لها:....

- يا إريام هل تثقين بي؟
- أكيد، وإلا ما اتصلت بك، ولكن صديقتي تقول بدلا من أن تخسري أتعاب المحامي، ممكن أن تتجهي إلى المنظمات الإنسانية، فهم يقدمون لك المساعدة والنصح، ويرشدونك في ذات الوقت إلى الطريق القويم..
- لا تسمعي هذا وذاك، لا أحد يمكنه مساعدتك والدفاع عنك دون مقابل، ثم أن المحامي بخبرته وعلاقاته يستطيع أن يصل لنتيجة ترضيك، تواجده المستمر في المحاكم واحتكاكه المستمر بالقضاة يولد بينهما علاقة صداقة ومصالح مشتركة، ربما تصل العلاقة بين المحامي والقاضي إلى درجة تقديم التنازلات والرشاوي من أجل إنجاح القضية. إضافة إلى كونه الماني الجنسية فأنه ينماز عن العربي بالحضور والتقدير، لأنه أبن البلد، يعلم كل صغيرة وكبيرة تخص بلده. فالمحامي العربي مهما كان كفوءً، فأنه في نظر الألمان رجلا غريبا غير مرحب به. لذا التعامل معه محكوم بالرسميات فقط، يبقى معزولا عن المجتمع وغريبا في أعين القضاة. انت على سبيل المثال، هل تشعرين بتقدير الأجانب لك؟
- لا أكيد، أشعر بذاتي منبوذة ووحيدة.

- هـم كـذلك ينظـرون لـه نظـرة دخيـل واسـتخفاف، لا تـذهبي بعيـدا فـي تفكيـرك، ثقـي بـأني أود مسـاعدتك، لأنـك أبنـة بلـدي. صـدقيني لا ينفعـك سـوى المحـامي المـاني. ثـم أن كـل اتعابـه لا تتعـدى الـف يـورو، أنـه مبلـغ تافـه أمـام ضـمان مسـتقبلك، ثـم إنـكِ سـتدفعين لـه في الشهر 50 يورو فقط...
- كلامـك صـحيح ومقنـع جـدا، سأمضـي معـك، رغـم أنـي مسـتغربة مـن قـرار الـرفض، لأن قضـيتي محبوكـة بشكل ممتاز لا تقبل الجدل.
- الـرفض عـام بالنسـبة للعـراقيين، لا تهتمـي، لا أحـد يسـتطيع إجبـارك علـى العـودة إلا بتعويضـك مـا تسـتطيعين بـه إعـادة توازنـك داخـل العـراق، هـذه الصيغة تفاهمت بها الحكومة العراقية مع المانيا.....

فـي اليـوم التـالي جـاءت برفقـة منـاف الـذي اوصـلنا لمكتـب المحـامي، ثـم غادرنـا لانشـغاله بعملـه الخـاص فـي محلـه. مـا أن دخلنـا المكتـب؛ حتـى واجهنـا المحـامي الـذي لـم يضـيع وقتـه معنـا، أكتفـى بتسـجيل موعـدا للمقابلـة فـي جـدول اليـوم التـالي الثلاثـاء فـي تمـام السـاعة الثالثـة عصـرا، كمـا بـين لهـا أتعابـه مقابل الدفاع عن قضيتها مثلما ذكرت لها بالتفصيل...

فـي اليـوم التـالي الثلاثـاء شـهد الطقـس وابـلا مـن ودق المطـر الصـديد، بحيـث بـدأت الغيـوم تـزخ مكنونهـا مـن الفـيض مـن السـاعة السادسـة مسـاءا مـن اليـوم السـابق وحتـى السـاعة الثانيـة ظهـرا مـن يـوم الثلاثـاء بـذات الـوتيرة والغـزارة، بحيـث بـدت

السيول تغسل الشوارع وتجرف الوديان، بينما أغشيَّ الأفق بضباب كثيف ورطوبة عالية، فلم تهدئ من زج فيضها في الربوع حتى الساعة الثانية من بعد الظهر، حينها هدأت من هوسها وجنونها، تحول فيض الهادر لرذاذٍ تتلاعب به الريح.... في تلك اللحظة، وبتلك الأثناء كان الباص الذي يقل إريام قد وصل لمحطته الاخيرة، قادمة من قرى كيمنتس... فطلبت من أبني ان يستقبلها ويعود بها للبيت حتى نجهز أنفسنا ويحين وقت ذهابنا لمكتب المحامي في تمام الساعة الثانية والنصف، والذي لا يبعد مكتبه عن السكن سوى ثلاث مواقف ركوب الباص.

إريام فتاة شابة عشرينية، تهجس بسمرة بشرتها عنج من رغاء تأريخ سومر وأكد، يرغ في حسنِ ملامحها سحرٍ شفيفٍ من لدانة البداوة، تهجس في نظراتها تخفي أسرار جنوحها، دون أن تدرك بأن تلك الأسرار مفضوحة للمقابل؛ لطيب قلبها وحسن ادبها وفيض تعليمها. جاذبية ما تغص في ملامح الوجه كلون الخضرة في ورق الشجر، محاجرها تختنق بعيون واسعة كعيون المها، تسمو تلك الملامح بأنف شامخ، يفيض هيبة مغشية بالخجل، دائما ما تفرش وجهها ابتسامة شفافة، بها تلوي أذرع المارقين بها، تبجل ملامحها بإطار من شَعْرٍ عكرٍ مغشيٍ بصبغة النار، يضفي على قوامها الق وجاذبيةً غضة.

حضرت للبيت بروحها العراقية الترفة، متحلية بالبساطة التي نتصف بها، كنا قد تغدينا على عجالة من ما أفاض به

الله علينا، لنسرق الوقت قبل أن يسرقنا، كان واضحا عليها تأثرها بظرفها الموحش، حزن شفيف يوشح ملامح وجهها، جراء سخط القرار المجحف الذي صدر بحقها من قبل دائرة الهجرة، لم نكن نحظى بسعة من الوقت لنتصفح شكل القرار وغله، ما أن انتهينا من الغداء؛ حتى انطلقنا مسرعين إلى المحامي في تمام الساعة الثانية والنصف، مرتدين ملابسنا المطرية، تجنبا لغثاثة الطقس وجلد المطر.

خلال تواجدها القصير في البيت وفي طريقنا إلى المحامي؛ دار بيننا الحديث التالي:....

- أين تسكنين يا إريام؟
- في قرية تبعد قرابة ساعة بالباص، انا وبنتي عمرها أربعة سنوات نسكن في بيت صغير.
- وأين زوجك؟
- أنا مطلقة، لم أهجس به مهتم بنا، كثرت العقد وتطورت المشاكل، فادت بنا إلى فسحة الطلاق...
- إن كانت لكي نية الارتباط؛ فزوجك أولى بك، ولن تجدي من يُعنيه شأنك ومستقبلك بمثل ما يكنه لك من إجلال ومحبة، فمهما يكن فهو أبو أبنتك.
- لا الامور تعقدت بيننا وكأننا نمضي في خطين متعاكسين، لن أفكر بالزواج، أود تكملة دراستي.
- يا إريام كيف تعرفت على مناف؟
- في الكنيسة.
- نعم! ....

أصبت بدهشة! ماذا تفعل بالكنيسة؟ ذلك ما جال في خاطري.

- في الكنيسة.
- ماذا تفعلين في الكنيسة؟
- أغني، اترنم بترنيمات الكنيسة.
- أأنت مسيحية؟
- أنا لا أعترف بالديانات ولا فرق عندي بين الاسلام والمسيحية.
- وماذا يفعل علاء في الكنيسة؟
- ربما يبحث عن ذاته.
- إن كان لك صوت جميل لِمَ لمْ تكوني مطربة؟
- كان ودي ذلك، لكن الخجل منعني، فأنا لا أجرء أن أطلق صوتي للعنان أمام حشد من الناس.

كان ودي أن اسمع صوتها إن كان يوافق جمالها السادي، ولكن في تلك اللحظة كنا قد وصلنا مكتب المحامي. ما أن دخلنا المكتب حتى أجتمع بنا طالبا قرار دائرة الهجرة ليطلع عليه. ما أن اطلع على قرار الرفض حتى قال لها:.....

- أنت قرارك إيجابي الهجرة منحتك إقامة ثلاث سنوات وجواز سفر ألماني، فأنت ليس عندك قضية كي ادافع عنها!!!!
- ماذا تقول؟ إقامة !! كيف والذين سألتهم قالوا القرار قرار رفض وترحيل.

- لـم يفهمـوا المضـمون، القـرار إيجـابي، كونـك دخلـت المانيا عن طريق البر، مبروك الإقامة.
- شـكرا لـك، يـا الله كيـف خـدعوني، ثلاثـة اشـخاص قـرأوا القرار وأقروا بأنه قرار رفض وترحيل...

حينهـا اشـرت لهـا بـأن تعطيـه 50 يـورو مقابـل السـاعة المخصصـة لهـا إضـافة لبشـارته بالإقامـة. عنـدها خرجنـا مسرورين والفرحة لا تسعها وهي تقول:....

- أنـا متأكـدة مـن قضـيتي محبوكـة، كيـف خـدعوني وخـدعوا انفسـهم، ادعـوا بـأنهم يفهمـون اللغـة الالمانيـة، تبين أنهم لا يفقهون شيئا منها.
- الف مبروك يا إريام، الخير فيما اختاره الله.

فـي الحقيقـة هـي ربحـت الاقامـة؛ لكنهـا خسـرت نفسـها أمـام الله، فلـم تحصـل علـى الإقامـة إلا بتزكيـة الكنيسـة لهـا وذلـك بعـد أن صـبأت وتنصـرت، هـم هكـذا يحـاربون المسـلمين بالخبـث، يقـول الله فـي كتابـه العزيـز: {وَلَـنْ تَرْضَـى عَنْـكَ الْيَهُـودُ وَلَا النَّصَـارَى حَتَّـى تَتَّبِـعَ مِلَّـتَهُمْ..} صـدق الله العظـيم. ويقـول أيضـا {وَمَـن يَبْتَـغِ غَيْـرَ الإِسْـلاَمِ دِينـاً فَلَـنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ وَهُـوَ فِـي الآخِـرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران:85].

بعـد أن حصـلت علـى الإقامـة؛ غيـرت أسـمها مـن زينـب إلـى إريام.

# كريستال

همس لها، همساته شغلت إذنيها، رقتْ لها مرحبة. هس هاجسها بدفقة من شواظ ناره، أتقد فتيل رقتها عذوبة. بتلك الهمسات كان قد أنهى جدال شوقه وعاطفته، كمن سقاها كأس نبيذ من وجده، فأخلّ بميزان سحرها، فذابت بين عينيه كالسكرة المغشية في مذهب الكأس..

كان قد استهام بها واستهامت به، سكر من طيب شهدها، وسكرتْ من شهد محبته، تهاوى في حسن غواها، وتهاوت في قيح نفسه، أضحى كمن يضبح في جريه خلف جريد حبها، بات كمن يتنفس هباب النار لشدة حرارة الاشواق والوله..

لم يصبر على عصفها وصمتها، أعترف لها بأعجابه بها، اعترفت له بأعجابها. أتفقا على أن يمضيا معا حياة صدقة على سراط مستقيم، أن يلملما خبب الوشائج المتناثرة في أجواء الغرام، تلك المنبثة من لدانة الرغبة ومن سنن الأهواء والأحلام، أتفقا على جنح النفس لواحة العشق، لصياغة إقرار للفتنة الجياشة في الروح بعقد القران، لتزف الأفئدة الملتاعة إلى ملتقى الصمت والألق لفردوس المودة.

لـم يتـأخر فـي فتـرة نضـجه وأعجابـه طـويلا، تقـدم لخطبتهـا، جمعتهمـا العاطفـة علـى سـرير المحبـة، تآلفـا علـى بركـة الله، دخلا برغبة جامحة القفص الذهبي.

أضـحتْ لـه قوقعـة صـدفية تصـون عشـرته، جعلتـه لؤلـؤة صـدفيتها، التزمـت بتعاليمـه، حافظـت علـى كيانـه، جملـت قامتـه بين أصدقائه. صار لها دفترا وقلما، سطرت عليه سعادتها.

انـدمجت وتـداخلت الوشـائج ببعضـها، تـوارت الفروقـات فـي أنزيمـات المحبـة، حتـى صـارت تلـك العلاقـة مـن الصـفاء والرقـي فـي عيـون الغيـر كريسـتال يلمـع تحـت ضـياء الشـمس، صارت نموذجا يحتذى بها لشدة الألفة والتفاهم والرقي..

بقيـت تلـك الحالـة سـائدة حتـى حلـول ضـيفهما الأول، حـين ولـدت لـه صـبيا يماثلـه الشـبه. مـن يـوم ولادتـه تعلـق الأب بأبنـه تعلـق الـروح بالجسـد، وكـأنَّ الطفـل قـد سـرق عواطـف أبـاه مـن حضن أمه.

لشـدة تعلقـه بـه أبـا أن يتربـى علـى أيـدي الخـدم، فطلـب منهـا أن تسـتقيل مـن وظيفتهـا لمداراتـه، شـرح لهـا جنوحـه وجنونـه بمحبـة طفلـه، بـين لهـا حجـم خوفـه عليـه مـن الإهمـال الـذي قـد يتعـرض لـه وهـم بعيـدان عنـه، لعـدم ثقتـه بـإدارة الخـدم. ولكونـه رجل البيت؛ فأنه سيتحمل مسؤولياتهم...

لكنهـا لـم تنثنـي لطلبـه، لـم تنحنـي لرغبتـه، لقـد التمسـت شخصـيتها فـي وظيفتهـا، وجـدت فـي الوظيفـة طاقـة إيجابيـة لقتـل

دودة الـروتين، وجـدت متنفسـا حقيقيـا تسـلك بـه منغصـات الحيـاة. وجـدت بهـا متعـة إلقـاء الـدروس والالتقـاء بـزميلات العمـل وسـعادة مرجـوة حيويـة دائمـة وطاقـة إيجابيـة تحثهـا علـى الحياة.

الأنسـان بذاتـه يحتـاج لمتـنفس يشـغل بـه خلايـا مخـه، الجلـوس فـي البيـت يعنـي تجميـد الفكـر والـذاكرة، يعنـي الانشـغال فـي أمـور تافهـة، يعنـي التخلـف وزيـادة فـرص السـخط والهـم والعقـد والروتين.

حـين يحتـك الانسـان بـالمجتمع يسـتلهم منـه سـعادة تنسـيه همـوم الـدنيا، تتجـدد أفكـاره، يلـتمس اخـتلاف الثقافـات، يشـرع إلـى الاعتـداد بـالنفس، يشـعر بصـفاء الـذهن، إضـافة للتكامـل المـادي والمعنـوي الـذي هـو بـأمس الحاجـة لـه لديمومـة الحيـاة. العمـل يجلـي متاعـب الـنفس والبـدن، تلـك التـي تـتعفن وترهـق الـذات مع مرور الزمن كبكتريا العفن..

فالأنسـان يولـد بـالفطرة بـلا هويـة، حتـى يجـد لـه متنفسـا لتكـوين الهويـة. حـين إذ يشـعر بقيمـة الـذات وهـي تشـارك المجتمـع بصيغة ما.

كمـا أن العمـل يجنـب الأنسـان الامتعـاض وأمـراض العصـر، الفـرد لا يمكـن أن يجتـر ذاتـه عـن المجتمـع طالمـا يعـيش ضـمن أطـره، ثـم أن عجلـة العمـر لابـد لهـا مـن أن تسـتمر، وفـي نهايـة المطاف ستستقر بخلاصة تجارب الفرد واحتكاكه بمحيطه.

كـان جميـل يشـعر بامتعـاض مـن عنـاد زوجتـه بثينـة، وجـد فـي سـلوكها أنانيـة علـى حسـاب وليـدها، هجـس بعنادهـا تطـرف وإخـلاء المسـؤولية، ربمـا أصـيبت نفسـيا بعقـدة الأنجـاب، نتيجـة التعـب نفسـي والتغيـر الفسـيولوجي والفكـري والبـدني للجسـد. ربما كرامتها غلبت عاطفتها تجاه ابنها...

فيمـا هجسـت بثينـة بـأن الطفـل قـد سـرق منهـا اهتمـام الـزوج بهـا، رغـم أنـه فلـذة كبـدها. وجـدت نفسـها قـد تغيـرت طباعهـا بعـد الـولادة. هجسـت بـه يسـرق وقتهـا الثمـين واهتمامهـا بنفسـها، دون أن يعوضـها زوجهـا خسـارتها، دون أن يعـي بمـا تشـعر بـه زوجتـه. وجـدت ذاتهـا تسـتعين بالخـدم، لتخفـف وطـأة المشـقة على نفسها، لذا لم تتنازل عن وظيفتها.

حينهـا بـدأت خيـوط العقـدة تلتـف علـى عنـق العلاقـة بينهمـا، صـار الفتـور يفصـل بـين النـار والنـار، حتـى ذابـت الطرفـة والكلمـة الطيبـة فـي جمـرة العنـد، حتـى غـارت البسـمة فـي جمـود المشـاعر.... يـوم بعـد يـوم زاد الـتجهم فـي الوجـوه، تكـورت العقـد مالـت النفـوس نحـو التحـدي، كـل يبحـث عـن نصـر علـى حساب الآخر.

لـم تسـتجب لرغبتـه، ولـم يتنـازل عـن طلبـه؛ ممـا أدى إلـى ارتفـاع وتيـرة العنـاد؛ حتـى تهافتـت المحبـة بتيـارات العقـد. بقيـت شـذوذ الحالـة سـارية المفعـول، وصـلت الالفـة بينهمـا لمرحلـة التفتـت والانفصـال، تحـول ظـرف الخصـام لرغبـة فـي الانفصام.

نتيجة المرارة الذائبة في العلاقة بين الزوجين؛ أجبرا على طرق أبواب المحاكم، هجسا بأن الحالة رتيبة تنقصها التفاهم الغير ممكن. مما وجدا أنفسهما يتقصيان الحلول في المحاكم بفرض الطلاق.

استمرت الحالة المستعصية بين خلاف الطرفين عدة اشهر، تحولت الصيغة بين جذب وشد، وجد بها القاضي هوة شاسعة تفصل بين فكر الزوجين دون أن يحكم بالانفصال والطلاق، كما وجد في العقدة فسحة أمل ضئيلة تعيد المياه لمجاريها، أمام سيل العند والجفاء..

أنتبه ضميره لمحل العقدة، فلم يواكب تطلعاتهما بقطع صلة الرحم، كان قد لمس التلاحم الشبقي بين وجد الطرفين. وجد من الصعوبة أن يبت بأمر الطلاق لأسباب تافهة، أضحى يؤجل القرار شهر بعد شهر لعدة تارات..

في المقابل زاد التذمر والتنمر بين الزوجين، كانا قد يأسا من عودة المياه لمجاريها. تمسكا بحالة الانفصال بعد أن تحولت لصيغة قبول عند الطرفين. حيث اختلط سواد الظن ببياض النية، طغتْ الحالة الرمادية على الوضع العام.

في الجلسة الأخيرة كان لا بد للقاضي من أن ينهي هذا الجدل والنزاع، كان عليه أن ينطق بالحكم ويوقع على مبدا الطلاق الذي أزف به الصراع...

قبل أن يقر قراره؛ طلب من كلا الزوجين كتابة خمسة خصال تخص الطرف الآخر في قصاصة ورقية، بقي يتأمل ذلك مع الاحتفاظ بالسرية. بعد أن دون جميل خصال بثينة، ودونت بثينة خصال جميل، طلب منهما تبادل القصاصات وقراءتها بسرية.

حينها صارا يقرآن الخصال ويختلسا النظر لبعضهما البعض، على وجههما تفترش ابتسامة شفيفة، تارة يسرفا النظر لوجه الآخر بخجل وندم، وتارة بشوق وحسرة، حتى قرأ القاضي هواجسهما.

حينها ترك القاضي غرفة التحقيق لبرهة، وحين عاد صار يشحذ بصره حول تغيرات الحالة الطارئة بين الزوجين، لقد شهد الزوجان غارقان في وشوشة آنية، يبتسمان بوجه الآخر. حين إذ أقترح القاضي على الزوج أن يعزم زوجته في مطعم قبل تقرير المصير، على أن يعودا إليه بعد يومين لتثبيت أمر الطلاق.. إلا أن الزوجين شكرا القاضي على حسن تصرفه وبعد نظره قائلان له:...

- شكرا لك، لن نحتاج قرارك، سنحل مشاكلنا بأنفسنا. لقد قررنا الاحتفاظ ببلورة الكريستال.....

تأبطت الزوجة زوجها خارجان من القاعة، فيما بقي القاضي يتجول في أروقة القصاصات التي بقيت سرا من أسرار الزوجين

# وفاء كلب

بعد التحاقه بوحدته الرابضة في باطن الصحراء الغربية القاحلة، قرفت نفس لؤي أبن البصرة من مواجهة عُقدْ الروتين وهالة الضغوطات النفسية التي تعرض لها من ظرف مادي ووطن غير مستقر، إلى جانب سخط أجواء الصيف القائظ، والحالة القسرية التي يعامل بها أمر الوحدة جنوده.

تلك الثيمة تحكمت به وبمجريات حياته، نتيجة تدني حالته النفسية من حالة الجنون، كونه عريسا جديدا يعاني تضخم مستويات المعيشية كباقي أبناء الشعب، مكبل بالعجز والضعف أمام متطلبات الزوجية وحكم قيود الظرف، في ظل أمان شبه معدوم جراء المكايد التي تحيكها دول الجوار.

على مضي ستة أشهر من المعاناة كان قد غص في تلك المتاهة من العقد، رافقته حالة سوء الطالع بالتزامن مع غبرة القسوة التي أولدتها تلك الأنواء المتداخلة من أجواء الظرف وفقر وطقس ملتهب. أجواء منفلتة ومتشنجة، ولغت قروؤها في إناء صبره بشيء من الهم والغم والتوحد، كره ذاته وحظه العاثر الذي تراخى تحت سخط المطرقة والسندان؛ حتى جال به الزمن بين منازل العبث دون رأفة، ما دفعه تحمل عذابه النفسي والفكري بتصرم وخنوع دون جدل.

كان لؤي قد تزوج بفتاة أحلامه قبل أن يسوق لوحدته العسكرية بشهرين، ليعاني من الوحدة في جوف المسافات السحيقة، في تلك البقعة النائية التي أرهبته بشبح من موت ازرق وأسود وأحمر، جعلته يستكين على دكة العقد والأحكام القسرية ومجاراة الظرف.

تكالبت عليه المواجع؛ حتى وشل صبره؛ حتى أضحت تلك الظروف القسرية مفرطة في حقله، حاجزا منيعا بينه وبين حبيبته طوال الفترة الذهبية من عمر حياته الزوجية، فترة شوق العاشق الملهوف وهو يتأمل عصفورته تزقزق على وتد حلمه وخياله.

ما كدر مزاجه وأثقل كاهله؛ قسوة الأوامر الصارمة التي عامله بها آمر وحدته العسكرية، في ظل سخط صيف جانح غليظ أذاب عقله.

كان قد قرف تلك المنطقة بسبب حركة الكثبان الرملية اللاإرادية، والتي تحركها انفجارات صهاريج الحرارة في جوف رملها، تلك التي تمتص سمومها حبات الرمل من قبس الشمس، ثم تعكسها كهباب لهب تفلح الوجوه برفقة ريح سهوج مشوبة.

صور أوهمته، جعلته يتحسس انعكاسات الأضواء التي تشتط من سراب يحيط معسكره من كل حدب وصوب، نتيجة اختلال الضغط الحاصل بين دقائق التربة وذرات

الأثير الملامسة لها؛ كأنَّ اللهب والهباء المنبعث من صهريج التربة فيض بحر من المياه تحيط به.

لذا تجد الأبخرة تتكاثف وتشذب ذرات الأفق كضباب وهباب من العصف الدائر في تلك البقعة على مدار السنة، حرارة تكتم الانفاس، صور متشابه لسراب جاث في محيط ظنه ومعسكره، تشيط النظر، أينما تبصر تجد دليل سخط صيف عائم يلج في تلك البقاع الملتهبة..

تلك الظواهر الطبيعية أغشته ناظريه، زادت من جدلية الحالة المرة المغيظة، إضافة لارتفاعات المنطقة بموقعها المميز عرضة لعواصف ترابية ساخطة على مدار السنة، وتشهد شدة في ايام الصيف، لتثير غبرة في آفاق السماء، تقطع عن النظر دابر الرؤيا. قد تستمر آثارها ليومين أو ثلاثة؛ حتى تستكين العواصف يخف وطئها؛ حينها تنثل وجعها على الرؤوس كوفر الثلج، لتتعشق ذراتها الناعمة في الشعور والأهداب والرموش كنداف القطن.

تلك الظروف أولدت ضيقا وشجنا وعناء في صدر لؤي.

في أحدى الليالي المتعبة والتي كلف بها ليكون خفر حراسة على بوابة وحدته القريبة من الشارع العام، غرب مدينة حديثة. أقترب منه كلب جائع تحت جنح الظلام، ود أن يملأ بطنه بفضلات الجنود. وكأنَّ هذا الكلب هو ربيب الوحدة.

كـان حـال الكلـب لا يختلـف عـن حـال الجنـدي لـؤي إلا فـي الهيئـة والشـكل، الاثنـان جمعهمـا الظـرف والمكـان لـذات الهـدف والغرض.

الكلـب مشـرد، منهـك جوعـا، لا يعـرف مـاذا يفعـل أمـام زعيـق صيصـان بطنـه وغـل ظمـأه. ذلـك مـا دعـاه أن يلتصـق بالوحـدة العسـكرية ليعـين ذاتـه بفضـلاتهم؛ مقابـل أن يعينـهم علـى مبـدأ الحراسـة لـيلا.. فيمـا لـؤي هـو الآخـر لـم يجـد عمـلا أو ملجـأ يأويـه سـوى أن ينتمـي للمؤسسـة العسـكرية لإنقـاذ مـاء وجهـه أمـام زوجتـه، بعـد أن أغلقـت بوابـة التعيينـات أمـام وجـه، رغبـة في كف شبح الفاقة عن ذاته.

قدم لـه لـؤي شـيئا مـن الأكـل والمـاء ممـا تـوفر تحـت يديـه للكلـب، صـار يكلمـه كصـديق أو كشـخص يعرفـه، للألفـة التـي تجمعهمـا فـي تلـك النقطـة. الكلـب بحكـم تواجـده الـدائم صـار يشـترك فـي حرسـة الوحـدة بمراقبـة الـذئاب ووحـوش البشـر مـن الاقتـراب مـن سـور المعسـكر، لحـدة نظـره وبأسـه، مقابـل فُتـات مـا يحصـل عليها من الوحدة نظير عمله الدؤوب هذا.

حينها صار لؤي يكلم الكلب قائلا له:..

كيف الحال يا صديقي، هل تعلم أنت أفضل مني؟

كـان الكلـب اليفـا، قـد تعـود علـى ملاطفـة الجنـود لـه، لـذا تجـده لا يخـاف مـنهم، كـان أشـبه بالـذي يـدرك معانـاة الجنـود، لـذا كـان

يجيبه عن هذيانه بصوت خافت، كمن يصادق على معاناته قائلا له بصوت خافت فيه وجس:....

- أم.
- أنت حر طليق، لا تخضع لأوامر الضابط المتعجرف.
- أم..
- انت لست مجبورا على البقاء في هذه البقعة المبتورة مثلي، يمكنك أن ترحل متى شئت.
- أم..
- أنت تستطيع أن تتجول هنا وهناك، تستطيع أن تذهب إلى المدينة وتأكل ما لذ وطاب، الناس طيبون يراعون طلبك ويعطفون عليك.
- أم..
- أنت أما غبي لأنك ملتصق بنا في هذه القطيعة الجرداء، أو ذكي تستغل وجودنا لتوفر عن نفسك عناء توفير الأكل.
- أم...
- ثم لا أدري أنا أدافع عنك؟ أم أنت الذي تدافع عني؟
- أم...
- في كل الأحوال أنك أفضل مني، لأنك لا تفكر بزوجة ولا بأولاد ولا بأهل ولا بمرتب ولا بالأوامر المناطة ولا بسخف الآمر.
- أم..

- الـذي يحيرنـي أنـك وفـي لنـا، ونحـن لسـنا بأوفيـاء لـك، ممكن أن نتركك أو نقتلك، ومع ذلك أنت متمسك بنا.
- أم...
- لـو تفهـم، لـو تفكـر قلـيلا لتركـت هـذا المكـان، لـذهبت وبحث عن زوجة تريح بالك.
- أم..
- ربمـا أنـا الغبـي ولسـت أنـت، انـت مجـرد انتهـازي تـود ملـئ بطنـك فقـط، لأنـك لـو تركتنـا فلـن تجـد مـن يعطـف عليك ويقدم لك الطعام مجانا في ظل هذه الأزمة التي يمر بها الشعب.
- ام.....

صـار يهـز الكلـب برأسـه وذيلـه، دلالـة علـى عـدم الرضـا، وكأنـه قد فهم المقصد.

حينهـا عـرف لـؤي نفسـه أنـه يـدور فـي حلقـة مفرغـة، بعـد أن هاجـت بـه الأشـواق شـغافا بحبيبتـه، صـار يـدور فـي فلكهـا كـدوران العجلـة دون أن يتقـدم خطـوة للأمـام، بـات لا يـرى فـي الأفـق البعيـد سـوى أطـلال اشـباح تطـل عليـه، تناجيـه، تتمثـل لـه كمراكـب سـفن متحركـة جـراء حركـة الـريح العاتيـة، أو كأطيـاف منبثـة مـن عمـق الدماسـة والوحشـة المـراءة، بظـل صفير ريح مفزعة أرهقت كاهله.

تلـك الكثبـان المتحركـة تبـدو لـه فـي محيطـه أشـبه بأوكـار شـياطين، تبـث الرعـب فـي قلبـه بـين الفينـة والفينـة، حينهـا تـذكر

زوجتــه فــي وحــدتها، فجذبــه الحنــين إليهــا، وكأنهــا صــارت تناجيه مع صرصرة الريح التي قرشت صوان أذنيه.

كأنــه كــان قــد سـمع نـدائها ورجائهـا بـات يـرق بأذنيـه؛ لـذا قـرر أن يجـاري خيالــه ويـدخل إلــى وسـط ذلـك الهبـاب بتلـك الفكـرة التــي جاشــت فــي ذهنــه، ليرفــق الــريح إلــى حيــث المجانــة والصـخب والجنـون، عسـى أن يعثـر عـن ذاتـه التائهـة فـي قـوس حبيبتــه، عســى أن يــدرك خلــف تلــك الهــواجس المكهربــة شــكل حبيبته..

لــذا قــرر أن يهــرب مــن وحدتــه، تاركــا ســلاحه فــي مكــان الحراسة بحضرة الكلب يحرس عليه.

صــار يمشــي وعينــه تــتمعن فــي العمــق المجهــول الــدائر حولــه، يبحـث عـن وجـه القمـر بـين فتـون النجـوم، عـن وجـه حبيبتـه المغشي بالغبرة...

فيمــا بقــي ذلــك الكلــب ملازمــا مكانــه، ملتزمــا بوفائــه، مرابطــا فــي محلــه، ضـميره يقيـده، راعيـا ظـرف لـؤي بمـا حـاق بـه مـن سقم ومرار وهو يتبعه بنظرات عينيه الودودتين.

أســتمر لــؤي فــي مغازلــة فكــره ومراعــاة ســره، متــدحرجا مــع عصـف الـريح دون أن يلتفـت خلفـه، فيمـا عـين الكلـب تتبـع أثـر خيالــه بانكســار، حتــى غــص فــي جهــم العتمــة بعــد أن وصــل حــدود الشــارع العــام، لتقللــه مــن هنــاك عجلــة عــابرة لمدينــة حديثة، ثم لينطلق منها إلى حضن زوجته.

# الدنيء

استفاق من غفوته وقرر أن يبدأ تغيير منهج حياته، أن يُحسن من ظرف معيشته، أن يرتقي بحاله لمصاف المقبولية مما يعانيه من سوء تدبير وفاقة.. لذا أخذ ميثم بمشورة والده وقرر الهجرة خارج العراق، إيذانا بتفاقم سوء الأوضاع وانحدار المستوى العام وضعف فرص تدبير المعيشة بعد احتلال العراق. كما رنا الى الآية الكريمة " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فأمشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور" صدق الله العظيم.

خلال الرحلة الميمونة من بغداد إلى تركيا؛ كان قد تعرف على شاب في الطريق أسمه حسن، أبن العشرين عاما، كرفقة له في الطريق. كان قد أحسن إليه بحمل أحدى حقيبتيه من خلال الطريق. حسن هذا له دراية جيدة بإسطنبول، كونه مقيم بها، يسكن منفردا في شقة صغيرة تقع في شارع فاتيح – الشقة عبارة عن استديو ( غرفة متوسطة الحجم فيها سريرين زائدا حمام ومطبخ) قريبة عن مكان عمله.

بعد الاندماج في الحديث واستبيان الظروف المتشابهة التي دفعت بهما إلى الهجرة، ألح حسن على ميثم بالسكن معه في شقته حتى تستقر أموره ومن ثم يقرر مصيره، حتى يحين أمر هجرته إلى الجهة التي يبتغيها.....

في إصراره وإلحاحه عليه كان ميثم قد لمس طيبته وحسن سلوكه، كما وجد فرصة سانحة أمامه للتعرف على معلم مدينة اسطنبول وسبل الهجرة منها. حينها لانَ لطلبه، كونه بحاجة ماسة لمرشد يعينه في اسطنبول لتجاوز الفترة الحرجة من رحلته، يستعين به، ويحافظ على ما في جيبه من اموال للغد الآتي، كما سيتعرف على أسرار ومنافذ طرق الهجرة.

شارع فاتيح شارع تجاري متخم بالكماليات والألبسة الجاهزة، لذا دائما ما تجده مزدحما بالمارة، كما أنه شارعا حيويا يقع في منطقة حيوية من إسطنبول تكتظ بالسكان وباعة الجملة والمفرد ومحلات الأجهزة الكهربائية، طول الشارع بحدود كيلومترين.

خلال مرحلة السفر كانت قد أرتقت الحالة النفسية بين الأثنين إلى درجة الألفة، بحيث أزيحت العقد وأذيبت الاستحياء والغرابة بينهما بعد أن التحمت الوشائج حد الانصهار. لتقارب الميول بينهما، كانت قد رفعت درجة التكلف باندماج فكر كلٍ منهما بفكر الآخر، كأنَّ كل منهما على صلة بالآخر منذ أمد بعيد. على الأقل كان ذلك من وجهة نظر ميثم الذي كان يكبر حسن بعشرة سنوات تقريبا.

ما أن دخلا الشقة؛ حتى هجس ميثم بحاجته الماسة للاستحمام لما كان يشعر به من حرارة في الجسد، ود نزع كدر الرحلة وغل السفر وإرهاقه، كان حسن قد هادنه خلال

رحلته بحمل أحدى حقائبه- لذا وجد ميثم طمأنينة منه، فخلع ملابسه تاركا إياها على أحد الأسرة، كما ترك محفظته وعلبة سجائره فوق طاولة صغيرة تتوسط السريين ثم دخل إلى الحمام ليستحم.

ما أن فتح دوش الحمام على رأسه؛ حتى سمع طرقا على الباب بملحة، حيث وجد حسن يطلب منه تسليمه ملابسه الداخلية المتسخة ليغسلها، قال له بملحة عجيبة وبترجي!!:...

- يا ميثم أعطني ملابسك أغسلها!!!
- لا مستحيل، هذا غير ممكن..
- لا تكن جلفا، أنا اخوك الصغير، ثم أنا لا اغسلها بيدي، أنها الآلة التي تغسل الملابس.
- يا أخي انا لا أدع أختي تغسل ملابسي، وبالذات الداخلية منها، فكيف أسمح لنفسي بأن تغسلها أنت بذاتك؟
- قلت لك لا تضع العراقيل والعقد بيننا، خذ المسألة ببساطة، أنا مجرد وسيط أضعها داخل الغسالة لتغسل وتنشف بسرعة، دعنا نكسب الوقت لا أكثر، ثم أنك كنت قد خدمتني كثيرا خلال الطريق، وحملت عني أوجار السفر، وأريد أن أعيضك عن ذلك.

بسبب الحاحه المتزايد، ووقوفه بباب الحمام مصرا على رأيه؛ أرتخى ميثم لطلبه مسلما إياه ملابسه الداخلية ليغسلها.

وبعد استحمامه؛ أخذ قسطا من الراحة، ثم قرر أن يعزم رفيقه حسن في مطعم قريب من الشقة، ليملئا بطونهما بأكلة تنسيهما جعجعة بطونهما الخاوية وعناء الرحلة.. ارتأت هواجسهما بأن يذهبا لمطعم يعني بالأكلات العربية، وأن يأكلا مما تشتهيه النفس، مضت الأمور بسلاسة حتى امتلأت بطونهما مما جاد به الله...

بعد الانتهاء من وجبتيهما؛ تنافسا الأثنان على دفع فاتورة الأكل المقدرة بـ 15 دولار تقريبا..... وما أن فتح ميثم محفظته كي يدفع فاتورة الحساب حتى لسعته المفاجأة، ما أن دقق في محفظته حتى لسع من ما فيها، أرتجتْ ذاته على حين غفلة.... لقد وجد المحفظة تصفر، خالية من النقود!... حينها استشاطتْ أوداجه غضبا، صار أشبه بالسمكة المزهرة لا يرطن إلى سكون، مشتت الفكر، مضطربا، تائها في سلوكه وتركين ذاته.

أنتبه عليه حسن وهو يتقلب بين يديه مصفر الوجهه... حينها سأله بخبث وارتياب..

- ما بك يا اخي؟

لم ينبس بشفة، لم يستطع أن يذكر له الحقيقة، غص في غيضه، كتم همه في وحل خجله، لا يستطيع اتهامه جهرة بسرقته، بات يشك بأمر نفسه. صار يتمتم مع نفسه دون أن يفقه من تمتمته شيئا، معرضا وجهه إلى الجانب الآخر، قائلا له بجفاء:...

- لا شيء، كأني قد أضعت نقودي أو صرفتها.

في إجابته؛ كأنه أرسل له رسالة، أوضح فيها معرفته بما حصل.

ببجاحة وغلظ قال له حسن:...

- لا يهمك يا أخي؛ أنا سأدفع عنك فاتورة الطعام.

صار ميثم يسال نفسه ويجيب:...

- هل من المعقول أني أضعت 250 دولار في الطريق.. لا وألف لا، أن ضاع شيء من المحفظة لضاعت المحفظة كلها.. أين ذهبت فلوسي أذا؟ ترى هل ذهبت ضريبة ثقتي به، أم ضريبة الأمان الذي منحني إياه؟ أم ضريبة غسله ملابسي الداخلية؟..هههههههههه...

أصحى يا نائم، لا تثق بكائن وأن كان من صلبك، وبالذات في هذا الزمن الكفيف. ترى؛ لو عرف مقدار ما أحمل والمدفون في جيب سري من السترة؛ لجردني من كل ما أملك، أنها إشارة من الله أن أتمسك بالحذر.

من جانبه حسن كان قد فكر في فرصة سرقة ميثم منذ الوهلة الأولى التي تعرف بها عليه، وقد خطرت في ذهنه فكرة استغلال الفرصة، كونه أضحى ككبش الفداء بين يديه، أنه

غشيم وطيب القلب، والفرصة مواتية في استغلاله وصيده، كونه أول مرة يغادر العراق.

بما أنه في ذاته نية الهجرة، إذا لابد من أنه يحمل معه مبلغا دسما من المال. لذا الح عليه على أن يسكن معه في شقته ليقترب من هاجس الفرصة أكثر، وليسهل عليه سرقته ومباغتته.

ترى إلى أين ذهبا بنفسياتهما؟ هذا ذهب لنفسه وبراءتها، وذاك ذهب لذاته وتربيته وعينه الجانحة. هذا تمسك بالقرار والفرار وذاك تبع المكر والإقرار، فالتمس في سره السحن والعذاب النفسي والمرار. فمهما أزفت وتولت النفس؛ فلن تفلح في سعييها تلك النفس الأمارة بالسوء، وأن ظفرت بغنيمة ما، حتما ستلاقي الويل والمر والمطبات.

لقد تمكن حسن من سلت المبلغ من المحفظة بعد أن خاب ظنه في إيجاد المبلغ المخبأ، بعد ذلك حاول التمويه في سلوكه بغسله ملابسه الداخلية، ولكن بدل أن يخفي شنعته الخبيثة بوشاح الطيبة التي أبداها تجاهه في سلوكه، كان قد عرى ذاته بالخسة والنذالة. لقد أوقع ذاته في شرك مصيدة الرحمن التي لا ترحم....

حينها ختم ميثم على نبذ صداقة حسن بالشمع الأحمر، ليتجنب امثاله الذين كثروا في بلاد الغربة، هؤلاء الذين يعيشون على أكتاف البسطاء كالبكتريا العفنة.

يقول المتنبي:..

اذا انت اكرمت الكريم ملكته

واذا أنت أكرمت اللئيم تمردا

# الفراشة

ما أن لمحتها في ممر البناية التي نسكن بها؛ حتى دخلت في حشاشة الفؤاد كقطعة حلوى، راقت لمزاجي، أنها فعلا تستحق الثناء والاطراء، تهجس بها كفراشة تطير بخفة جناحيها بين الممرات من بؤرة لأخرى دون أن يروقها مكان ثابت.

أحيانا تدور حول ذاتها لترسم ببراءتها شكل زهرة نرجسية لطيفة بثيابها البيضاء وقلنسوتها الزرقاء، وكأنها تعرف حجم الأنظار إليها فتحاول أن تستقطب الأنظار دون قصد ذلك. إذا ما أخذنا بعين الاعتبار شكل لباسها المميز المكون من طقم بجامة قطنية بيضاء، مقلمة بخطوط سوداء دقيقة. أحيانا ترتدي فوقها كنزة سوداء براقة، يكاد الحجاب يأكل ثلث وجهها، فلا تشاهد من جسدها سوى عينين كعيني قط كأنها بلباسها نحلة، أحيانا ترتدي فوق الحجاب قلنسوة تقيئها شر البرد. فيما تضع على فمها وأنفها كمامة بيضاء تقيئها شرر فايروس الكرونا.

كانت غريبة الأطوار، باحتشامها وحيائها المعني، تبدو كتحفة ذا قيمة، تشع منها أصالة، يشكمها الدين وحسن التربية. كما لبسها المعتاد يدل على عفتها والتزامها الديني

بعيدا عن الملذات والإغراءات التي تتبجح بها بعض الفتيات من سنها.

لذا تهجس بالألق ينبث منها كضياء مصابيح تشظ من شعل، تبهج أوصال فتنتها. تهجس بالأناقة لباس مفصل عليها، ببساطتها ونظافتها ترتع في وسط تلك الاجواء الملبدة بالغيوم، كماسة تستثير الأضواء من حولها. فهي في كيانها غيداء، عفراء، هيفاء، ناعمة، فاتنة، مراءة في حشمتها وحيائها كصفة اللون في الزهرة.

كانت دائما ما تحمل في جيبها هاتفين، وكأنه إذا ما فضي شحن الأول تستعين بالثاني لكثرة مهاتفتها، دائما ما تجدها مشغولة البال بأمر مهم خاص بها. لذا تهجس بها كحمامة تلهو خارج السرب باستمرار.

كانت من عادتها حين تنشغل بمهاتفة شخص ما؛ تدور حول نفسها وباتجاه واحد كعقرب الساعة، وفي قطر دائرة محددة بمترين أو ثلاثة، وكأنها مصراع ميكانيكي مبرمج، لا تشعر بالتعب والكلل، لا تتوقف قط حتى تنهي مهاتفتها...

خلال دورانها حول نقطة مركزية وهي تهاتف خطيبها، تهجس بها ترسم في خيالها هدف يتراءى لها أقرب لها من ذاتها. كنت قد راقبتها في عدة مرات لأشغل بالي بأمر لتسليك الوقت، خلال مراقبتي لها حاولتُ عد دوراتها، لكني عجزت، لأنها مشحونة بطاقة لن تنتهي، كالكواكب السيارة، كأنها تسعى في دورانها إلى محاولة إمساك قرص الشمس

لنيل غاية جلية. كأنها آلة مكوكه مبرمجة على فكرة ما، تسعى بذاتها خلف تلك الفكرة، للثقة المفرطة في نفسها. لذلك تبعت مسارها بفضول..

في مهاتفتها كانت تبذل جهدا مضنيان مفرطا، مركزا على إدارة المحاورة، لإيصال الفكرة بشكل سلس للمتلقي، بحيث تحرك يديها ورأسها، تصرخ وتهدأ كممثلة بارعة، تتمعن في بُعد الفكرة وفي عمق تفكيرها، لتوضح مغزاها بجدل واضح يشغل خاطرها، كأنها تبحث عن شيء ما ذات أهمية كبرى بالنسبة لها يحدد مصيرها ويرسم لها مستقبلها، شيء ذائب في صيغة المحاورة.

على ضوء حركاتها ودقة اهتمامها، تبدو كأنها المحور الذي ترتكز عليها الفكرة، لذا بحصافتها غدت ميزانا دقيقا لمقياس المعرفة، كعتلة التوازن التي يتكل عليها الشخص المقابل في ترتيب أوراقه وإدارة شؤونه وتنظيمها. لذا بسرها وألقها كانت تفرض نفسها وتقرض المهاتف ليرضخ لذاتها، تفرض ذاتها على المتتبع لها من زاوية عدة دون عناء.

وأنا أجزم بان الشخص المهاتف مكبول بها، لن يتجرأ أن يخالف رأيها أو يتفوه بكلمة لتوضيح أمرا ما، أشعر به عاجز على تحدي رأيها، مستمع فقط، لأنها في مهاتفتها تبدو كآلة المسجل لا تسمح للمقابل بالتحدث قط. لعلو صوتها تبدو كمجموعة عصافير تزقزق في آن واحد، بحيث لن تسنح للمقابل أية فرصة يرطن لها بفكرة تجول في ذهنه.

كما أن في انغماسها واندماجها في المهاتفة؛ كانت تعزل ذاتها عن العالم الخارجي، تنقطع موصلاتها تماما، بحيث لا تسمع ولا ترى ولا تحس بمحيطها قط. لانغماسها في حيثيات الفكرة، تبدو أشبه بعجلة متدحرجة من قمة مرتفعة نحو سحيق الوادي، تلك هي ديدنها، ولا تكف عن منهجها إلا بعد أن تنفد طاقتها.

وفي أحدى المرات كنت قد شاهدتها تدور في فلك دائرتها، تلك كانت في ساعة متأخرة بعد منتصف الليل، وجدتها تدور في ممر البناية التي نسكن بها قرب غرفتي، حتى أني لم أستطع عد دورانها حول نفسها لكثرتها، لذلك تقدمت منها وقلت لها ممازحا :...

- يا نور ...أمسكي بريك ( أي توقفي عن الدوران)..

قالت بابتسامتها المعهودة:....

- لا أستطيع...

فقلت لها مبتسما:....

- يا نور أنت واهمة، العمرة هي سبع دورات وليس مئة دورة.

ابتسمت لي بلطافة ملئها رقة وحياء، وكأنها ودت أن تقول لي لا تشغل بالي، فأني الآن مشغولة في أمر مهم جدا مع العالم الآخر، عالم الأرواح والسعادة، أود أن أربط وتر

العقل والقلب إلى البؤرة الفكرة التي أدور حولها، ليكون لصدى الفكرة نغم ورنين عند الطرف الآخر يجذب انتباهه، لا تقطع عني شبكة التواصل الملمة بحيثيات المستقبل..

كنت أتوقعها تواصل أهلها، غير أني عرفت بأنها مخطوبة، وهي في أوج فكرة ترتيب الزواج أمور الزفة والسكن.

كان الله بعونها.

صارت كلما تراني تبتسم لي ذات الابتسامة البيضاء، تتذكر اعتراضي لها على عدد دوراتها المكوكية. تعودتُ أن أراها بذات الكيفية من البهجة والألق في كل صباح ومساء...

وحين جاءت لجنة حل العقد والمشاكل من قبل دائرة الهجرة، قدمت اعتراضا على تواجدها بعيدا عن خطيبها، وبعد الاعتراض كانت قد اختفت مباشرة - كنت قد توقعت بأن اللجنة قد استجابت لطلبها، غير أنها كانت تهرب من سجن الكامب لتقضي جل وقتها بين أهلها، ومن ثم تعود للكامب في نهاية الاسبوع لتقبض ماهية المساعدات المقدمة من قبل دائرة الهجرة. هجست بها كالطير المهاجر، تختفي من عالم الحس ومن ثم تظهر وحيدة في الأفق كنجمة سهيل الساطعة.

ما أن اختفت على حين غفلة حتى هجست باختفائها انزواء الشمس عن صرح الكامب، كأنها كانت تضيئ جدرانه بألقها

وحركاتها ونشاطها، على الرغم من أن البناية تحوي على عدد من الفاتنات؛ ألا أنها حين غابت تركت برواز فتنتها يؤطر ظلها، تركت طيفها على جدران الذاكرة، كالنوافذ تفيض بالأمل.

في مقارنتها بزميلاتها، وجدت تلك الشعرة اللبيبة من الحياء والخجل، هي الفارق التي جعلت الروح تفيض بالألق وبتلك الابتسامة البريئة الطافحة على ثغرها دون كلف.. حينها ران لذهني بيت أبي العتاهية:...

وفرز النفوس كفرز الصخور – ففيها النفيس وفيها الحجر

# الصورة

كنتُ قد عدتُ لغرفتي في ساعة متأخرة من الليل، جلست على سريري أتأمل الحيطان واللوحة الزيتية المعلقة على الجدار المقابل لسريري، تخزق أذنيَّ ترنيمة الساعة الجدارية التي لا تكف عن إزعاجي بصوتها الرتيب، وكأنها تذكرني بالوحدة وحساب العمر...

اللوحة أكثر ما شدهت انتباهي، أوحت إليَّ شعورا بالحزن وأنا أرى فيها وجه فتاة مراهقة أضناها الزمن، تغشي وجهها خطوط بؤس هميمه، تشقيها باقة حطب محمولة على ظهرها المعتد، ترتدي لبدة من الصوف، تحمي جلدها الرقيق من خدش خشونة الحطب، والتي ممكن أن تقرح جلدها نتوءاته المدببة.

تبدو جادة بحملها وهي تمشي في ممر ضيق مطرق من قبل السابلة، تربة مليئة بأنواع من الشوك والعاقول والصبير والنباتات البرية الصحراوية، التي من الممكن أن تدمي قدميها العاريتين، ومع ذلك تبدو في عندٍ وإصرار وعزيمة على مقارعة الطريق والظرف المحيط بها.

ترتدي تحت اللبدة نفنوفا شفافا من الشيفون وردي اللون، مفلج الصدر، يغطي جزء من ساقيها وبطنها، مما يفضي إلى

بـروز مفـاتن الجسـد المغريـة، المغنجـة بالشـبق، كإطلالـة جـزء مـن ثـرى الثـدي المنتبـذ فـي الصـدر مـن خـلال انحنـاء قـوام ظهرهـا بزاويـة منفرجـة، لتـوازن ذاتهـا مـع ثقـل الحطـب المحمـل علـى ظهرهـا خـلال المشـي. إضـافة لبـروز تكـور عجيزهـا للخلـف بشـكل ملفـت للنظـر، وكـأن الرسـام تقصـد فـي تفعيل شعل المفاتن ليجلب النظر للوحته..

مـع إطلالـة مفـاتن الجسـد وتوافـق ابتهـاج رمـان الصـدر بـالألق؛ بـدتْ كـوردة زاهيـة تفلـح الطريـق. فيمـا تبـدو سـاقيها المغنجتـين بالرقـة والفتنـة كشـطبي عـود بـان لاسـتقامتها، يشـع مـنهنَّ حيويـة وألـق، مصـقولتان مـن الشـمع، للفيض الـذي يسـيح فوقهمـا. فيمـا ترتـدي فـي قـدميها حـذاء أحمـر مـن الجلـد، يغطـي القـدم إلـى الرسـغ، ليقيءهـا عبـث الأشـواك وقَـرَصْ الأحجـار الصـغيرة المشاكسة.

وجـدتُ فـي الصـورة تمـازج فـي تركيبـة اللـون والأبعـاد التـي رام إليهـا الرسـام، أبهرنـي عمـق المغـزى، وجـدتُ أبعـاد الفكـرة تلتقـي فـي زوايـا الفتنـة، وافـق قـدر الفتـاة مـع سـحرها وفظاظـة الطبيعة، تبدو كأنها ترتدي العزم والرجاء بذات الكيفية.

إبـداعٌ ملفـتٌ للنظـر سـطرته ريشـة الفنـان وبالـذات فـي مواضـع فـتن الجسـد، أضـفى مهـارة فـي تجسـيد الفكـرة، أبـدع فـي بـروز الفتـاة كعامـل جمـال رئيسـي فـي الفكـرة التـي يبتغيهـا. تمكـن الفنـان مـن تعميـق ذلـك الخـط الـوهمي البـارز فـي الفكـرة بشـيء مـن العبقريـة، جسـد الفكـرة علـى أنهـا شخصـية هلاميـة قائمـة

بـذاتها تجـول فـي اللوحـة، إلـى جانـب التحـدي الواضـح فـي أصـرار الفتـاة المراهقـة علـى المراهنـة علـى قـدرتها الفتيـة فـي ظل الوحشة والوحدة التي تعيشها تحت جلد وبأس الظرف.

لوحـة تعبيريـة جسـدت حالـة الفتـاة وهـي تشـقى فـي تجـاوز محنـة الـرزق وجمـود الحيـاة بإصـرار، بـذا كأنـه شـكل مقارنـة وهميـة بـين عمرهـا الفتـي وقسـوة الظـرف.. إلـى جانـب إصـرار الفتـاة أوضـح زحـف أمـل يـوازي طموحاتهـا، حلـم تـراه مغـروس فـي الطبيعـة كمقاومـة الشـجر ذاك الظـرف، والجربـوع الـذي يزحـف بخطاهـا خلـف البنـت، كانـه يتبـع حيويتهـا التـي فرضـتها علـى الطبيعـة فـي تلـك البـؤرة المنعزلـة. كأنه غرَّ بفتنة الحياة وجسد تلك الفاتنة..

كـان الرسـام قـد أصـرَّ إلـى إبـراز مواضـع الفـتن، ليـدهش النـاظر بقـوة بصـيرته، وضـع اللغـز فـي صـرة الهـدف، جعـل المشـاهد يغـور فـي الفكـرة التـي تجتمـع عليهـا الأفكـار الاخـرى، ليرتقـي بالمشـهد إلـى البلاغـة، ود جعـل المشـاهد عنصـرا مـن عناصـر اللوحة، ليتجاوز الفكرة بالمغازلة الحية.

كـأنَّ الجربـوع وجـد الفتـاة تضـفي صـفة الجاذبيـة علـى الطبيعـة، لـذا تبعهـا لينقـذ ذاتـه مـن لـون الحيـاة الرماديـة، المكفهـرة. أهجـس بحالـه لا يختلـف عـن حـالي مـن ناحيـة الوحـدة والحيـرة، جعلنـي اتبـع غيـه فـي تتبـع فـتن الفتـاة بحثـا عـن لغـز الحياة في الطبيعة.

برع الرسام في أضفاء محيط الفتاة بالعقد، غال في الأدغال والأشواك والأحراش والوديان، أضفى التلول والمنحدرات لتجسيد معنى العناء والوحشة، إلى جانب تأثير عصف الريح على جسدها الملائكي، بحيث أينما تنظر تجد للريشة دور في إبراز حالة تثير بها فكرة العناء والشخصية الوهمية الغائرة في ثنايا الفكرة، المرفلة في مبدأ الحضور في كل مرافئ الصورة. أعطى لهيئة الصورة إنمازا مبهرا في القدرة والتعبير، تمكن من إبراز روح الحركة في عالم الجماد.

لا أهجس بغموض في اللوحة، أينما أنظر أجد فيها شحنة كهربائية تضيء فكرة ما، أطرها بجاذبية عامة تشد الناظر إليها، سواء كانت في تجسيد الفتنة وعمر الفتاة أو إبراز جلد الخريف وسرعة الريح وكثافة الشجر وعناء الجربوع. وذلك من خلال تناسق الألوان المراقة في اللوحة، بحيث جعل المستحيل يذلل المستحيل.

قتامة اللون أضفى طابعا الحزن على ملامح الفتاة، إلى جانب طفح أمل يشفق بين ظلال عينيها، من خلال عزمها وإصرارها على تحدي الظرف. كأنه أخذ الفكرة من لوحة موناليزا المشهورة للفنان ليونارد دافنشي، وهي تشد العزم على خصرها لمقاومة جلد الظرف البليد، لمقارعة القدر برقة الجسد وخفة الدم والفتنة المراقة.

من جانبي وجدت في تلك السيقان المثيرة للشبق، ثورة فتن تنسحب على الساقين من الكاحل حتى الأرداف، في جاذبية

سليطة تحث الناظر إلى تأمل إشعاع تلك الفتن، مع ذلك أعشقها في العمل لتجاوز حالة الفقر المربكة التي أجبرتها على تحمل الظرف والفاقة.

وجدتُ عناصر القوة مركز في ملامح الوجه وطراوة الثديين وبروز العجيز وطراوة الساقين، كأنها تمشي على حد السيف، بين أن تسقط في هوة العذاب أو أن تفلح في عبور المفازة لتجتاز عجزها وضعفها وفقرها المريب.

الفتاة تبدو عصامية، شديدة المراس، وكأنها أخذت شراستها من جلد الظرف، فهي لا تنظر لحشرجات ضعفها قط؛ أنما إلى إرادتها لتتحكم بالظرف وأمور حياتها، لذا ربطت أحزمة العزم إلى بطنها، أودعت في ذهنها فكرة صماء من الظفر، كي لا تهتز عتلة توازنها، كي لا تكسر وتتقهقر.

كان الفنان قد أودع اللون في موضع الجاذبية، أعتمد في سره على عقد الطبيعة، بحيث من ينظر للوحة من نظرة تفسير أو تخاطر يجد فيها شعلة نار إلى جانب جمود غارق في وجه الفتاة.. كأنَّه أراد بالنار إذابة ثلوج العجز، لتجتاز خط الرجاء الفاصل بين الشك واليقين، بين وجودها وعالم الوجود.

تلك اللوحة جعلتني أتمعن بأبعاد الجسد وملامح الوجه التي أغرتني، وبالذات في تكور تلكا الساقين الشرستين وهما يشعان القا وفتنة في إبهاج اللوحة؛ حتى اني صرت أهيم

بتلك السيقان وكأنها حقيقة تشاكسني. كأني أصابني لاعج الهوى، لذا صرت أتخيلها مطروحة إلى جانبي في فرشتي، تخيلتها زوجتي، بت أحتضن بغنج وأنا أحتضن وسادتي، متدثرا بملأة فرشتي، لما لها من طلة أججت ضفائر الشبق في نفسي

كأني انحدرت في غيي وإسهابي كثيرا حين خاتلت ظني، فأغدقت في تخيلي وخيالي مفاتنها؛ حتى تهت في توهمي بأنها عارية الجسد مطروحة إلى جانبي، خلتها عاملة النظافة التي كنت قد صرفتها في فترة الظهيرة، وكأني قد ندمت على فعلتي بإبعادها دون أن أجامعها، حتى صرت أرهز الفرشة بعنف، متلذذا بتلك المفاتن وأنا غارق بإستمناءة واستمالة لا أدري كم طالت وطافت بي، غارق في مركب السفر. كم راغت وزاغت في خيالي بأبعادها، فلم أشعر بتلك التفاهة والبلادة التي لازمتني إلا بعد أن تبلل رأسي بالعرق ولباسي بماء الحياة، حينها صحوت وعدت لرشدي الوم ذاتي على فعلتي، عدتُ أجر عربة خيبتي وعيوبي إلى عالمي المتقلب بالندم، صرت أكره نفسي الضعيفة الأمارة بالسوء، وهي تزحف خلف خيال لا يتوقف.

صرت أتلمس وجهي وأنظر لذاتي بمرأة الغرفة، ترى ماذا جرى لي وأنا أزحف دون وعي خلف كل فاتنة، حينها هجست كم أنا صغير أمام تلك الفتاة، لما فيها من تحد وإصرار وإيباء وقوة وشراسة لعبور المفازة نحو النجاح.

حينهـا هجسـت بعصـا الضـمير تهفـو علـى ذاتـي، لأستكشـف جوف غابة الوحدة والهجر التي تكبلت بها.

هجست بـذاتي أصـغر شـأنا مـن تلـك المراهقـة، وأحقـر مـن ذلـك الجربـوع الـذي يتبـع الحيـاة، لمسـت ذاتـي دون عمـق حقيقـي، لا أدري أن كـان سـلوكي الغيـر متـزن يقـودني لطبيعـة الناسـوت أم يجردنـــي مـــن الايمـــان بـــاللاهوت، أم يخضـــع لـــ عسعســـة شـيطانية.. كـأني خـارج نطـاق المسـحة البشـرية. حينهـا صـرتُ أستنسـأ ذاتـي للحظـة الإيمانيـة، كـي لا تسـقط فـي مطبـات الشـك والقدر.

عـدت أنظـر إلـى اللوحـة، مـا أن نظـرت إلـى عينيهـا حتـى غمـزت لـي، دهشـت، تطـايرت مـن رأسـه ظنـوني الوانـا علـى اللوحـــة، تلونـــت عينيهـــا وشـــفتيها ووجنتيهـــا بتلـــك الظنـــون، ابتسـمتْ لـي، صـعقتُ، روح مـا تـدور فـي ملامـح وجههـا، تـرى من تكون ؟

لـذا دخلـت للحمـام أسـتحم وأغتسـل لأجـز العقـد والارق عـن ذهنـي وذاتـي، أقـرأ آيـات التعويـذ، كـأنَّ الحالـة مقرونـة بالوحـدة والفـراغ ركبـت فكـري، كـأني لا أسـتطيع تخطـي عجـزي منـذ أن فارقـت زوجتـي، بـت أنـوس فـي ذكراهـا، تائـه بـين مفاتنهـا ومفاتن كل سليطة حسناء من النساء.

# الوفاء

ذات يوم استفاقت هيونا على وقع حلم كظيم، ترك أثرا بليغا في نفسها، حلم أسعدها لحظة وأحزنها ساعات، كان جميل بوقعه وأحداثه، بليغ بثقله ومضمونه، ذكرها بفترة طفولتها، قبل أن يجبرها الظرف اللعين على ترك دارها مرغمة، لتعيش أسيرة حزن ووحدة مقيتة في الميتم.

ما أن جلست في سريرها حتى أجهشت بالبكاء، فرشت ملأة الحزن على محياها، فاضت عيونها بسيل من الدموع، أنتبهنَّ زميلاتها على نحيبها، آلمهنَّ شجنها وآهاتها؛ تجمعنَّ حولها، واسينها، الذهول يسيطر عليهنَّ دون أن يعرفن سبب شجييها، استفسرنَّ منها عن مصابها:...

- يا هيونا – ياهيونا اخبرينا لِمَ تبكي، هل أصابك مكروه؟

بعد أن هدأت أعصابها وعادت لطبيعتها؛ شرحت لهن قصة ظرفها قبل أن تأتي للميتم وهيَّ تعيش سعيدة برفقة والديها وكلبها الأبيض، في بيت كبير في ضواحي قريتها. قبل أن يغير عليهم القدر وجهة حياتها ليختطف والديها من بين يديها، وذلك حين انزلقت عجلتهم ذات يوم عاصف ثلجي،

لتنحدر بهما العجلة من مرتفع تلة إلى وسط بركة ماء، فأودت بحياتهما..

حينها كانت عائدة من المدرسة برفقة صديقتها ماغي، الصدمة كانت كبيرة عليها، اذهلتها، خطفت والديها من بين أيديها بلحظة غفلة، لم يكن لها أقارب أو أخوة يكبرونها ليعتنوا بها، لذلك دفعها الظرف إلى ترك البيت والعيش في الميتم.

رغم أنها كانت صغيرة دون العاشرة، ألا إنها بقيت محتفظة بذاكرتها لبيتها وكلبها ووالديها، مشدودة الخواطر لماضيها الذي يذكرها بطفولتها وقريتها وصديقتها فحسب؛ أنما بكل شيء جميل كان يشغلها ويسعدها. لأنها كانت وحيدة دون أخوة، كانت مدللة، رفيهة، تكيل محبة خالصة لوالديها، مثلما يكيلان لها ذات المحبة.

لذا كان وقع الحلم عليها شديدا، شتت ذهنها، جنح بخيالها بعيدا إلى عمق الماضي، إلى سعادة أمس وهي تنظر من النافذة للخضرة المفروشة في محيطها، تتمعن في الأزاهير المختلفة وهي تفترش محيط حديقة الميتم.

كانت قد أغرتها كثيرا زهرة الأوركيدا، تلك التي ذكرتها بوالدتها وهي تعتني بها في حديقة البيت، أهتمت بهذه الزهرة اهتماما جليا، اعادت لها شيئا من ذكريات أمها، تسللت إلى ولعها بتلك الزهرة. لذا ما أن وقعت عينيها عليها؛

حتى شدتها الذاكرة إلى اهتمام والدتها بها، وكأنها تخاطب والدتها باهتمامها بالزهرة وفاء لها ومحبة بها.

لذا اعتنت بها منذ يوم دخولها الميتم، لأنها تذكرها بوالدتها التي كانت تحب هذ الزهرة، تعتبرها من ممتلكات والدتها، لذا أصبح بينها وبين زهرة الأوركيدا ألفة ومحبة، صارت تزورها باستمرار كل صباح دون غيرها من الأزاهير. دفعتها الغريزة، العاطفة، تسقيها، تنظف سيقانها، تشعر بلونها فيه صبغة من روح والدتها العذبة.. فيما وجدت الزهرة في اهتمام هيونا بها لمعة وطراوة، كأنها أضفت عليها سكينة وخيال، أتحفتها بشذى أنفاسها وعبير إحساسها، فبدت تزداد ثراء في الحسن والالق مع الأيام.

خلال سرحانها بأرجاء حديقة الميتم، عبر النافذة المطلة عليها من غرفتها، أخذها الخيال بعيدا عن أماكن تواجدها، إلى ما كانت عليه قبل تلك الحادثة الأليمة، كانت لاتزال واقعة تحت تأثير سطوة الحلم. حينها تذكرت صديقتها ماغي، التي كانت لا تفارقها في طفولتها، يلعبان معا، يشتركان في تبادل الآراء، يمضيان معا للمدرسة.

في تلك اللحظة خالها الشوق لزيارة ماغي، تخيلتها تمرح وتركض معها بين أغصان الأشجار والحشائش المبثوثة في حديقة الميتم. صارت تلاحقها بنظراتها، تناجيها بروحها من خلف النافذة، تخاتلها، طاف بها الخيال لأعماق الأمس، دب في أوصالها رعشة سكون مفاجئة، تعلقت بذلك الطيف الذي

يغشي بصرها، في مساحة الخضرة الممتدة على مدى البصر حول قريتهم وسكناهم.

خلال شرودها وهي تتفحص الأمكنة ذات اليمين وذات الشمال بعينيها الشهلتين؛ افتقدت أثر ذلك الطيف، تلاشت صور ماغي من الأفق، يا ترى أين ذهبت ماغي.. أين اختفت؟ .. صارت تناجيها بروحها، بنظرها: أين أنت يا ماغي؟... لم اختفيتِ عن بصري؟..

لم تجد جوابا لإرهاصاتها....

مرت اللحظات سريعا، عادت لسكونها، لم تجد استجابة تطرق أذنيها، فلم يكن ذلك الهوس سوى طيف خيال تراءى لها حقيقة...

خلال مكوثها في الميتم عبر سنة كاملة، كانت ماغي تواظب على زيارتها مع بداية كل شهر، لكنها منذ شهرين لم تزرها، تخلفت عن موعدها، ذلك ما أقلق هيونا، ترى ما الذي منعها من الحضور، ما سبب تخلفها؟ بمن شغلت ذاتها؟ لِمَ لَمْ تتصل بها؟....الخ من أسئلة شغلت ذهنها...

حينها بادرت تستفسر من إدارة الميتم، لكنها كانت قد تلقت رسالة من ماغي تتأسف بها على تأخرها وتعتذر منها، لأنها تعرضت لحالة مرضية أجبرتها على الرقود في المشفى. كما أنها في رسالتها ترجتها زيارتها في المشفى...

حينهـا قـدمت هيونـا التماسـا لإدارة الميـتم لزيـارة صـديقتها مـاغي، ونظـرا للحالـة الإنسـانية وصـيغة الوفـاء المرفقـة بالطلـب؛ وافقـت الإدارة علـى طلبهـا وتمـت زيارتهـا برفقـة أحدى عاملات الميتم.

حـين ألتقـت برفيقتهـا مـاغي فـي المشـفى؛ هرعـت نحوهـا، احتضـنتها، انجـذبتا بعضـهما للـبعض، فرحـت كثيـرا مـاغي بزيـارة هيونـا وهـديتها، حتـى هجسـت بـأن المـرض قـد خـف عـن بـدنها. فـي حينهـا لاحظـا والـدي مـاغي حجـم الألفـة والمحبـة بـين الفتـاتين، حتـى تمنيـا فـي دواخلهمـا بـأن تكـون هيونـا أختـا لمـاغي. وحـين غـادرت هيونـا المشـفى وعـدتها بزيـارة أخـرى خلال الأسابيع القادمة.

وفـي أحـد الأيـام وهـي قابعـة فـي سـريرها أخبرتهـا مـديرة الميـتم بـأن عائلـة مـا تريـد تبنيهـا.. نتيجـة ألفتهـا وصـحبتها لعـدد مـن فتيـات الميـتم؛ كانـت قـد رفضـت الفكـرة، لـم تتقبهـا، فـي الميـتم خلقـت صـداقات مـع العديـد مـن الفتيـات صـرن يشـغلن بالها...

لكـنَّ المـديرة ألحـت عليهـا علـى قبـول الفكـرة، أوضـحت لهـا بـأن ذلـك مـن مصـلحتها، وأن واقـع الميـتم يختلـف كثيـرا عـن واقـع الأسـرة، فـالميتم لكثـرة أعـداد نزلائـه ومشـاكله الإداريـة ومشـاكل النـزلاء لا يجعـل الاهتمـام يكـون خاصـا، فالمسـؤول يراعـي عشـرات الفتيـان والفتيـات، لـذا يكـون الاهتمـام بالجماعـة لا يسـاوي الاتمـام بـالفرد. بينمـا العائلـة التـي تتبنـاك سـتكرس

اهتمامها عليك، ذلك ما سيغير من قدرك وشأنك مستقبلا نحو الأفضل حين تكبرين..

كما أن المديرة طلبت منها مقابلة العائلة التي تود تبنيها، قبل أن تحسم قرارها الأخير بالرفض، لربما تجد سعادة معها.

وافقت هيونا على مقترح المديرة، حينها ذهبت معها إلى المكتب لمقابلة العائلة، كانت تهجس بالحيرة.. وما أن فتح باب المكتب حتى أصابتها الدهشة والرعشة والمفاجأة!!.... حيث وجدت العائلة التي تود تبنيها هي عائلة صديقتها ماغي توماس... لذا تهلل وجهها فرحا وسرورا، أسرعت بخطاها نحوهما، أرتمت بذاتها في أحضانهما، شعرت بحنين الوالدين، وبالشوق لصديقتها ماغي...

حيث كانت تجمع العائلتين صحبة قديمة، وحين وجدت عائلة ماغي وجود هيونا إلى جانب ماغي سيساعدها على الشفاء العاجل، وستكون أختا ورفيقة لأبنتهما، إلى جانب رد جزء من الوفاء لوالدي هيونا، لذا قررا تبنيها نزولا لرغبة أبنتهما ماغي التي اقترحت على والديها الفكرة.....

كانت عائلة ماغي غنية، مكتفية ذاتيا، لا ينقصها سوى سعادة أبنتهما ماغي، وهذه السعادة لا تكتمل إلا بوجود هيونا إلى جانب ماغي، مما دعاها إلى وضب أمورها في خدمة الطفلتين على اكمل وجه.

بعد أن شفيت ماغي من مرضها، جدولت العائلة حياتها في برنامج أسبوعي، يضفي ألفة وسعادة على واقعهم، بحيث في نهاية كل أسبوع تهم برحلة ترفيهية لأحدى الأماكن المخصصة، وقد توزعت رحلاتهم على مدن الألعاب الترفيهية والمكتبات العامة والمتاحف وصيد السمك في البحيرة القريبة من القرية...الخ.

كانت هيونا قد استأنست كثيرا بانضمامها لعائلة صديقتها، حتى أنها شعرت بأن مربيها عوضاها حنان والديها، أنسياها مصابها...

باندماجها التام في خط العائلة؛ شعرت بذوبان الفوارق بينها وبين ماغي، حتى أنها صارت تنادي مربيتها بصيغة ماما، ذلك ما أسعد والدة ماغي كثيرا، عرفانا بحسن تربيتها.

ذات يوم تذكرت هيونا الميتم وتذكرت زميلاتها فيه، فبان على وجهها وشاح الحزن، وحين لاحظت مربيتها ذلك الأسى طاغ عليها؛ سألتها عن سبب إكتابها؟ فقالت لها:...

- لا شيء يزعجني، أنما تذكرت زميلاتي في الميتم، شعرت بالحنين إليهم... ترى يا ماما؛ هل ممكن ترافقيني في زيارتهم؟

حينها وجدت مربيتها بأن هيونا فتاة طيبة وعاطفية جدا، ويجب مداراة مشاعرها، لذا احتضنتها وطبطبت على كتفها، ثم قالت لها:...

- أبشري يا حبيبتي، سنأخذ بأيدينا بعض الهدايا لكل بنات الميتم، وسترافقك في الزيارة أختك ماغي.

تهلل وجه هيونا فرحا، ثم قبلت والدتها من يدها شاكرة استجابتها.

خلال زيارتهم الميتم عرفت زميلاتها على والديها الجدد وأختها ماغي، كما وزعت عليهم برفقة ماغي قطع من الملابس الجديدة ونماذج من الألعاب والحلوى، ذلك ما ترك انطباعا طيبا بين بنات الميتم وإدارة الميتم على حسن سلوك هيونا.

خلال عودتهم من الميتم بعد أن عرَّفت والديها على نزلاء الميتم، سألت والدها توماس بلطف:...

- يا أبي هل لدينا أمكانية مادية تمكننا من خدمة هؤلاء المساكين القابعين في الميتم؟
- ماذا تقصدين يا أبنتي؟
- أقصد بأن زملائي في الميتم لا يأخذون كفايتهم من التعليم، أنا وماغي نذهب كل يوم للمدرسة، فيما هؤلاء المساكين لا يحظون بهذه الفرصة، فتعاليمهم في الميتم مقتصرة على أمور بسيطة. أنا افكر تحويل دار والديَّ المهجور إلى مدرسة يتعلم بها نزلاء الميتم.

هل ممكن تحقق لي هذا المشروع وتكمل جميلك؟ أنه سيدر علينا عطف ومحبة الناس، وسيصيبنا دعاء السنتهم الصادقة، سيحمينا الله من الشرور والحسد، فأنا لا أنسى كيف أصاب الشر والديَّ.

أخذها بحضنه وقبلها من رأسها قائلا لها:....

- نعم يا صغيرتي سأحقق ذلك لك....

يوما بعد يوم ازداد إعجابا بذكائها وطيبتها.

- صحيح ما تقول؟؟؟؟؟
- نعم، نحن عائلة غنية، وهذه المسألة سوف لا تكلفنا سوى مستلزمات العمل فقط، طالما تبرعتِ بدار والديك؟ أبشري...

كان والد ماغي رجل حازم جدا، وكريم نفس، جواد، ساع للخير، وعندما سمع باقتراح هيونا فرح كثيرا، قرر دعم المشروع بفتح مدرسة الأيتام على أن يسميها دار هيونا للتعليم....

وبعد افتتاح المدرسة شعر توماس بفخر أنجازه وبمحبة الناس له، مثلما أشارت له هيونا، حينها قال لزوجته وهي ترافقه في جولة قرب الدار:...

- أني سعيد بهذه الفتاة اللماحة الذكية، لقد علمتني درسا في الحياة، لم أكن فيما سبق أدرك أثره.

- ماذا تقصد؟ وماذا تعلمت؟
- تعلمت منها الإباءة والوفاء والإيثار، كما تعلمت بأن السعادة يجب أن لا ننتظرها تحل بيننا، بل يجب علينا السعي خلفها، أن نخلقها، نصنعها بأيدينا، فالسعادة ليست بكثرة المال؛ أنما بطرق توضيبه وصرفه في مجالات تخدم المجتمع، المال هو عامل مساعد للوصول إلى سعادة دائمة..

حينها نظر إلى هيونا نظرة لطف وعطف وأعجاب، ترك في نفسها بصمة ثقة تعتز بها، مثلما تركت بذاته ذات البصمة من يوم دخولها محيط العائلة.

هكذا أضحى شاكرا لها عمق تفكيرها وإنسانيتها رغم حداثتها سنها، رغم عمق مأساتها؛ إلا أنها تمكنت من إزاحة العقد والفجوات من حياتها، تمكنت من رسم البسمة والسعادة في وجه ماغي والعائلة وزميلاتها في الميتم.

# آخر المشوار

مـا أن أنهـى مهاتفتهـا؛ حتـى علـم بانـه قـد أدرك معهـا نهايـة المطـاف، أدرك حـدود العلاقـة الزوجيـة، كانـت قـد شـطبت السـطر الأخيـر مـن احتماليـة الالتقـاء بـه مجـددا والتفـاهم معـه على أمور الخلاف.

كانـت قـد أبصـمت علـى خـتم مشـوارها معـه بالشـمع الأحمـر، بعـد أن وجـدت قناديـل شـبابها تهفـت نحـو الأفـول؛ طالمـا بقيـت تنتظـر ذلـك الفـرج أن يحـل علـى يديـه وهـي علـى ذمتـه؛ إلا أنـه كانت عيناه تنظر باتجاهٍ واحدٍ فقط.

تمكنـت حميـدة أخيـرا مـن وضـع حـدا لسـلوكه المتعجـرف، أوقفـت تلـك الإهانـات التـي كـان يكيلهـا لهـا، وتجاوزاتـه علـى أهلهـا ونسـبها دون سـبب، لقـد قـررت تنقـيط حـروف جمـل العلاقـة التـي تربطهـا بـه والتـي كـان لا يفقههـا، تلـك المبهمـة مـن طرفـه والتـي لـم يسـتطع فهـم تعابيرهـا عبـر سـنين الـزواج، ليـدرك مقـام زوجتـه الحقيقـي، لـذا قـررت مواجهتـه بافتعـال الصدمة.

تلـك هـي الطريقـة الوحيـدة التـي تسـتطيع بهـا إيقـاف نـزف حياتهـا معـه، والتـي مـن خلالهـا يمكنـه تقـدير سـلوكه وتصـرفاته الغيـر مسؤولة تجاهها.

لـم يكـن يتوقـع أن تكـون لهـا جـراءة وإرادة حـرة تفجرهـا بوجهـه، تحضضـها علـى رفـع السـيف فـي وجهـه، مواجهتـه، لـم يكـن يـدرك خطـورة عصـف المـرأة أن وجـدت متنفسـا فـي ميـدان الصـراع مـاذا سـتفعل بـه. لـمْ تـأتِي الصـدمة مـن عبـث، أنمـا نمـت وكبـرت مـع وتيـرة إجـراء أفعالـه واشـتداد الصـراع واسـتفحال الجـدل، جـاءت علـى ضـوء انحـراف خـط سـلوكه العام عن حقوق الزوجة، عن صيغة مبدأ سيطرة الرجل.

لـم يجـارِ مشـاعرها، لـم ينصـف تضـحيتها، كانـت ثقتـه بنفسـه عميـاء، أكبـر مـن حقيقـة تصـرفاته معهـا. لـذا مـا ان بـدأت تبـرز لهـا مخالبـا فـي الغربـة؛ حتـى غرزتهـا فـي عنـق تلـك العـلاق الهشـة. كـان يعـيش خترفـة أحـلام بعيـدة جـدا عـن واقعـه المريـر، عـن واقـع حـدود الأسـرة ومشـاكلها، وبالـذات فـي متابعـة صغيره المرهق بالزكام، نتيجة برودة اجواء السويد.

ذلـك المطـاف جعـل حميـدة تكـتم الغـيض فـي نفسـها، غـدت أشـبه بـالعبوة الناسـفة، تنتظـر كشـط صـدفية العلاقـة التـي تجمعهمـا لتنفجـر بوجهـه. تلـك العبـوة هـو مـن صـنعها دون أن يعلـم، هـو مـن زرعهـا داخـل بيتـه دون أن يفهـم، هـو مـن دشـنها فـي سريره دون أن ينتبه، ودون أن يعي أبعادها وشدة تأثيرها.

هـو مـن شـرع فـي إيقـاد فتيلـة العبـوة، هـو مـن عبـث بشـرارتها، حتـى احترقـت جـدران البيـت، بعـد ان غـال فـي تعسـفه وحبـه لذاته على حساب احترام تلك العلاقة..

مـا أن حصـلت زوجتـه علـى الإقامـة الدائمـة؛ حتـى بصـقت فـي وجهه، نبذته، تركته يأن وحيدا بين الجدران.

كانـت قـد بزغـت عُقـد الخـلاف بينهمـا كـورم سـرطاني منـذ بدايـة الـزواج. تراكمـت مخلفـات سـلوكه المشـين فـي ذهنهـا عبـر سـنين الـزواج الأعـرج، اختنقـت خلالهـا أزاهيـر شـبابها تمامـا بـدخان شخصـيته المعقـدة، حتـى أضـمحلت تحـت أسـيدة شخصيته كصورة دون روح وملامح.

خـلال تحكمـه كـان قـد أضـمر حريتهـا؛ عـق بريقهـا، حجـم وجودهـا، دعـس عليهـا قبـل أن تـتمكن مـن أن تسـتنجد بالشـرطة لينقـذوها مـن ضـيم فـرض عليهـا.. حينهـا الـتمس ضـفة قـدره، بعـد ان غربـت شمسـها عـن نافذتـه، اختفـت عـن عالمـه تمامـا، تحولـت حياتـه لقفـار مظلمـة، لـيس فيهـا سـوى ذكريـات يناجيهـا كالنجوم والقمر.

كانـت آخـر مـا قالتـه لـه عبـر الهـاتف وهـي فـي أوج غاضبها:....

- أنتهـى المشـوار، لا تلزمنـي عشـرتك بعـد اليـوم، لـم تكـن أهـلا لتلـك العلاقـة النزيهـة، لـم أجـد فـي قربتـك الفارغـة سـوى الهـم والغـم والعـذاب. جعلـت حيـاتي كـوة نـار متقـدة مـن يـوم الـذي تزوجتـك بـه، مـرارا حاولـت أن أقومـك دون جـدوى، تحملـت قرفـك وسـخطك وقسـوتك مرغمـة، تحملـت أبشـع صـنوف الـذل والهـوان، تبعـت عبثـك كالعميـاء، مـا كنـت أظنـك أعمـى القلـب والعـين،

بحيث لا ترى حياتي وأنت تدعس عليها بقدميك. الأيام الحلوة لم تقلم أظافرك، لم تنسيك جبروتك، فلم تتخلى عن همجيتك التي تطبعت بها...

لذا لم أجد جدوى لوجودي في حياتك، انتزعت مني كرامتي وشخصيتي، أفسدت أنوثتي، جعلتني جارية تلبي رغباتك، كسرت مرآة أنوثتي بعصا إهمالك.

- أتركي لي فرصة تصحيح المسار؟ أنت عشيقتي وحبيبتي، لدينا طفل يحتجنا معا.
- وأنت لم تقدر ذلك، قسوتك، همجيتك، تجاوزك عليَّ بالضرب المبرح دون مبرر، عن أي شيء أصفح، كنت عمياء، معزولة، وحين وصلت لهنا تفتحت عيناي وبقيت أنت أعمى، لا تبحث سوى عن الجنس.

بعد تلك المحادثة أغلقت الهاتف وغيرت شريحة هاتفها لتنقطع عنه إلى الأبد، لتختفي في خضم زحمة المدن والمسافات، بعيدا عن خط القلق والحيرة الذي كبل حريتها.

كان جمال قد هاجر إلى السويد مع زوجته حميدة نتيجة تفاقم أوضاع الحرب في سوريا، وكانت زوجته قد ولدت له طفلا قبل الهجرة بستة أشهر، فكان ذلك الطفل هو السر الوحيد الذي جعلها صابرة على بخله وجبروته وسلوكه الأهوج الهمجي...

خلال مكوثها معه في حلب، تعودت على نمط حياة الفاقة التي تألفها عائلتها، كان أبوها موظفا بسيطا، يكاد مرتبه لا يسد رمق عيشه. فيما كان زوجها أفضل حالا. كان قد تطبع على القسوة التي استقاها من تربية أبوه وطريقة تعامله مع والدته. أعتبرها جارية في بيته، جعل والده مثله الاعلى.

لبس عادات مجتمعه القروي، تعود على الكسل والتنبلة، في الوقت الذي به كانت تلبي جل طلباته. فهي لم تجد مناصا من عدم تنفيذ أوامره، في ذاتها كانت قد هربت من مذلة الفقر لتعشق ذاتها في مذلة الأوامر، وجدت ذاتها مرغمة على تقبل تلك المعيشة المزرية، خاصة بعد قدوم وليدها، تأملت أن يغير طباعه مع الوقت، لكنه كان حجرا أصم.

تلك هي الزوجة التي أرهقها عاطفيا وذهنيا دون أن تتمكن من فتح فاهها في مدينة حلب، لإلا ترمى رمية الكلاب بين ألسنة الناس، في مجتمع لا ينصف المرأة المطلقة بتاتا، تحملت وزر زوجها بالصمت والسكوت، رضيت بالعيشة المرة أكراما لفلذة كبدها، الذي أضفى عليها هدوءً وبصيرة.

لكن عندما وصلت السويد، وجدت متنفسا حقيقيا لحريتها، وجدت متسعا لفرض حقوقها كمرأة تحت ظل القانون السويدي الذي يساوي بين حقوق الرجل والمرأة. بل أنه يحرض المرأة على الانفصال، والتمتع في فضاء الحرية. لذا بعد أن تيقنت من مصيرها؛ أضرمت النار في هشيم العلاقة بمجرد أن حصلت على الإقامة.

لـم تنفـع تأملاتهـا التـي ذهبـت أدراج الـريح، بقـي متمسـكا بتلـك العجرفـة والنظـرة الدونيـة التـي ظـل ينظـر بهـا إلـى الزوجـة كخادمة يتحكم بمقدراتها..

غـروره أعمـاه، طفلـه لـم يـؤثر بـه، حتـى اكتشـفتْ زوجتـه بأنـه فـارغ الـذهن، هـش مـن الـداخل، لـم تجـد فيـه ميـزة تجعلـه ذا قيمـة تحترمهـا.. وجدتـه غـارب فـي خيـال بعيـد عـن واقعـه، شّخصـيّة مـن النـوع السـيكوباتيّة: تـتحكم بـه شـهواته وأطماعـه، خـالٍ مـن صـبغة المشـاعر والأحاسـيس؛ متمسـكا بكبريائـه علـى حسـاب العلاقة الحميمة، فاقدا صفة الإيثار.

مـن طبيعـة المـرأة تحـب زوجهـا، تتفـاخر بـه، تلـك الغـرة بقيـت تتحصـر عليهـا، دائمـا مـا تجـدها مهمومـة بوحـدتها، محتـارة فـي تلبيـة متطلباتهـا ومتطلبـات وليـدها. تهجـس بهـا كمكينـة الحـرث تجـد فـي محاولـة كسـب وده ورضـاه، وإذا مـا تخلفـت عـن أمـر ما؛ يكيل لها الضرب دون مقدمات.

مـن جانبهـا كانـت تحـاول الحفـاظ علـى الرمـق الأخيـر دون أن تفسـد الـود، لكونـه أبـو أبنهـا مـن جهـة، ومـن جهـة أخـرى لا زلـت صـغيرة السـن لـن تحتمـل فجـوة الوحـدة والاعتمـاد علـى الذات في ظل غربة لم تتأقلم عليها بعد.

لكنـه قطـع حبـل الوصـل، أحـرق فرصـة تحملهـا ضـيمه؛ عنـدما أختلـق فـي ليلتهـا الأخيـرة، المجنـة، عقـدة فـض مخزونهـا العـاطفي، عنـدما كـال لهـا الضـرب لأسـباب تافهـة، تلـك الشـعرة قصـمت ظهـر البعيـر، اختنقـت اجوائهـا بسـموم الـدخان. عنـدها

بـدأت تبحـث عـن صـرة أمـان تضـفي عليهـا الهـدوء والاسـتقرار، لـذا فـي صـباح اليـوم التـالي أرتمـت دخيلـة بأحضـان السوشـيال ( منظمــة اجتماعيــة) الــذين شــرعوا لهــا الأمــان فــي بقعــة نائيــة بعيدا عن زوجها، لتفرض عليه الطلاق إلى الأبد.

# زيارة صديق

هاجني الشوق لأزور صاحبي وصديقي وصفي في مدينة خانقين، وذلك بعد انقطاع دام سنينا عجاف، بسبب تقلبات أوضاع الوطن، فترة حرجة فرقت بين الأحبة. لذا اتفقت أن أزوره صباحا لأعود لبلدتي قبل الفترة المسائية، حيث المسافة بين مدينة بعقوبة التي أسكنها ومدينة خانقين تزيد عن 100 كم، تتخللها طرق وعرة وخطرة، لانتشار عصابات سرقات وأخرى اجرامية في حوض جبال حمرين. تهجس بهم قاطعي طرق، غرضهم زق بلبلة داخلية لغاية في نفس يعقوب.

ذهبت باكرا فوصلت داره قرابة التاسعة صباحا، وكأَنَّه كان قد استأذن من دائرته ( دائرة الكهرباء) لساعة زمن يستقبلني بها ومن ثم يعود لعمله، علما دائرته تبعد عن مسكنه مشوار عشرة دقائق مشيا على الأقدام.

ما أن أدركت داره المنزوية في نهاية الشارع حتى تزحلقت قدمي ببركة طينية أمام عتبة داره، لأزحف قليلا ومن ثم أسقط على عجيزي في وسط تلك البركة، وقد تطينت جل ملابسي وشمعت نظاراتي بمياه طينية وكسرت هديتي الزجاجية التي جلبتها له بثمن غالٍ، وهي عبارة عن مزهرية كهربائية، راقية.

صرت ألعن الشيطان بذلك وأنا أتمرغ بوحل غرين الطين، فيما شظيت المزهرية من وسطها. حتى أنه عندما فتح الباب تفاجأ بمنظري، لم يحتضنني، تراجع للخلف بعد أن وجد أمامه شبحا غريبا، مموها، متنكرا بلباس طيني.

وذلك بعد أن ورس لون وجهي بلون الزعفران والطين، خجلا وهوانا وانكسارا؛ صرت أشنف إلى عينيه بعينين غضنتين.

كان قد تفاجأ بدمامة مظهري، وشعشعة شعري ولبسي المهلهل، وهو يرى لكع الطين عالقة بملابسي المغشية بشناعة العناء وغراء الوحل.

تأسف كثيرا على حالي وهو يسألني باستغراب عن شكلي المقنع الذي ظهرت به، الذي يوحي للناظر بأني من المساكين. المنظر لا يسر عدو ولا صديق، حينها سألني باستغراب:.....

- من شمشون؟؟؟....هههههههه، ماذا جرى لك يا عادل؟؟
- نعم شمشون، هذا من شيم الكرم الذي تتصف به جانبك، أليس أنت صاحب المنزل؟ أيرضيك هذا الوحل أمام بيتك؟ لِمَ أهملت موضوع الوحل أمام دارك بشكل متقصد؟ ألا تود أحدا أن يزورك يا بخيل؟

صار يداري الحالة وهو يحاول أن يسعفني خجلا وتأسفا...

- هههههههه، حقك عليَّنا، أنا آسف، على آية حال الأمر خارج عن إرادتي، قبل يومين أغرقنا المطر، المهم أنت بخير وسنسوي أمور الملابس حالا، أنها أمور بسيطة، أدخل للبيت وسنتدبر الأمر بإذنه تعالى....

دخلت البيت، كان محرجا، حيث لا توجد لديه ملابسا تناسب حجمي غير لباس كردي، شروال كردي ( سروال عريض محدد من طرفه السفلي) وشال يلف به الرأس( شراوية) مع قميص أو مريول من نفس نوع السروال يلف على الصدر والبطن، يحزم بشال طويل. إضافة لحذاء بلاستيكي رقم 42 يوائم قدمي.

كان ذلك اللباس الوحيد المناسب لحجمي، لأنه في صناعة الشروال لا تأخذ القياسات الدقيقة، لذا عرضه عليَّ بخجل فقبلت عرضه ولا مناص من ذلك.

كان قد استأذنني بعودته لدائرته على أن يعود من العمل بعد ساعتين، وكان قد طلب مني اعتبار البيت بيتي لغاية عودته. خلال رجوعه لدائرته كان قد حمل ملابسي المطينة في غرارة إلى مصبغة الملابس (اللاوندري) قرب داره، على أن تغسل وتكوى وتجهز خلال ساعتين.

المصبغة تقع في رأس الشارع من جهة يسار البيت على طريق دائرة الكهرباء. بخروجه صرت أستطلع ذاتي بالمرآة وأنا ارتدي لباسي الجديد بشيء من الحيرة والعجب، أحترت في تسوية أمره، صرت ألف محزم الشروال على بطني وأفكه عدة مرات حتى شعرت بمقبولية لبسه.

ما أن خرج حتى خجلت من بقائي وحيدا في البيت بوجود زوجته، فقلت لذاتي دعني أخرج في جولة فترة ساعتين لغاية عودته من العمل...

وأنا أتمعن بصورتي الجديدة في اللباس الكردي في المرآة؛ كنت استند بعجيزي على طاولة خشبية تقع خلفي، وإذ بها تميل جانبا وتنحرف وتسقطني أرضا، مع سقوطها سقطت فوقها لاختلال توازني، أحدثت جلجلة في البيت، وإذ بها تنخلع وتنكسر أحدى قوادمها الاربعة التي تستند عليها، حينها خجلت من ذاتي وكرهت يومي الأسود، أضحيت في حالة يرثى لها.

بقيت جالسا على الارض وأنا في حالة هذيان وعينيَّ منكسرتان لا استطيع رفعهما بوجه زوجته التي حضرت على وقع الجلجلة. حينها رأفت بحالي فقالت لي:..

- لابأس... أنها قديمة، ونحن نود استبدالها....

قالتها بوجه متبسم لتسكين حالة اضطرابي، لتلين الأمر وتسوي الوضع المهزوز، محاولة تطيب خواطري المتأزمة.

استأذنت من زوجته وعيني خلجتان وخجلتان جراء فعلتي؛ على ما تركت من قبح في البيت، جراء منغصات رعناء دون إرادتي، صرت التمس العذر منها ذلك بعد تلك الزنقة التي أرهقتني.

كان لزاما علي ترك البيت، فخرجت من البيت وأنا في غاية الانكسار والألم، فقررت مع ذاتي إصلاح قدم الطاولة قبل مغادرتي خانقين، كي لا أترك ذكرى سيئة خلفي.

حين خرجت من البيت كنت تائها، وكأني أصابني شيء من الغيلان، لقد دار رأسي في دوامة التيه، لا أدري أين اتجه، وخاصة أول مرة في حياتي أرتدي الزي الكردي بطقمه المعهود، والذي بارتدائه كنت أشعر بذاتي فيها نشز ما يرهقني، أو خطأ ما غير مقبول يعترض هندامي. لا أعرف أن اصف الحالة بالضبط، كأني لست أنا. كأنَّ الملابس لا تليق بي أو أني لا اليق بها. شعور مختل، كالذي يشعر على رأسه ريشة؛ وذلك لعدم تطابق فكرة اللباس مع شكلي الذي تعودت عليه.

كنت خجلا من أن يلتقيني شخص ما في الطريق ويتكلم معي باللغة الكردية ولن استطيع أن أرد عليه أو أجبه بلغته، فيتصورني نطس؛ فتنحرف أفكاره ناحية أخرى بعيدا عن الواقع، أو يتوقعني مخبول، مشعوذ، دجال، رجل طلس، أو أي شيء من ذلك القبيل الممكن تسويفه وتخويره بما يمكن أن يصفني به.....

لذا مال فكري لمنحن آخر بعيد جدا عن مخالطة الناس، لقد قررت أن أذهب لجهة خالية من البشر، لجهة نهر الوند القريب أيضا من الدار من الجهة المعاكسة، لأستمتع بالطبيعة الخلابة والخضرة الممتدة على بساط الأرض، وخاصة نحن نركن إلى بداية فصل الربيع.

أخترت ذلك الطريق لأبعد ذاتي عن الشكوك والسخرية التي قد تلحق بي، والتي يبحث عنها آخرون بنهم في وجوه الناس. لأكون في مأمن من المطبات والتهكم والاستهزاء والتشفي، والتي أشعر بها في داخلي قد ارتدت ثوب حظي العاثر. ولتجنب تلك المطبات في مواجهة الآخرين بشخصية غير شخصيتي الحقيقية، وخاصة كان ذلك اليوم قد بدأ معي بشكل معاكس لما كنت أتمنى وأرغب، وكأنَّ العقد شظفت وتجنت في لقائي، فوطأة على قدمي من تلقاء نفسها، أو أن الشيطان وزها فاقترنت بي.

وكأني حين ارتديت الشروال أنقلب كياني رأسا على عقب، صارت شخصيتي التي أراها في المرآة لا تخصني من قريب أو بعيد، صارت هيولية، مبعثرة، ليس لها طابع ملموس، صارت مموهة بألوان الطيف، لا تنتمي إلى ذاتي الحقيقية قط. لذا كنت أتجنب إشراكها في مماحكات جماعية أو انفرادية تقترن بي؛ لذا توخيت الحذر بكل ما أستطيع، لأبعد الشك عن صوت القدر الذي يجاريني.

ومـا أن وصـلت شـاطئ النهـر؛ حتـى وجـدت منسـوب الميـاه مرتفـع عـن مسـتواه الطبيعـي، فـالنهر عبـارة عـن واد صـغير تجـري بـه الميـاه القادمـة مـن الأراضـي الإيرانيـة، حيـث عرضـه لا يتجـاوز عشـرة امتـار فـي أحسـن ظروفـه، ولكـن فـي ذلـك اليـوم كانـت الميـاه شرسـة، بسـبب تـدفق زخـم ميـاه الامطـار المستفيضـة نتيجـة تسـاقط الأمطـار بغـزارة قبـل يـومين، لـذا أرتفـع منسـوب النهـر، صـار يجـري بعمـق أكبـر وبعـرض مضاعف عما كان عليه.

مـا أن أدركـت النهـر حتـى وجـدت عليـه معبـرا خشـبيا بالنقطـة التـي أشـرفت عليهـا. وهـو عبـارة عـن مسـاطر خشـبية بعـرض قـدم ونصـف تقريبـا تـربط جهتـي النهـر، جسـرٌ عمـل المـزارعين الـذين يزرعـون محاصـيلهم فـي الجانـب الآخـر مـن النهـر. حيـث لا توجـد قنـاطر مبنيـة علـى النهـر تفـي الغـرض فـي تلـك البقعـة التي أدركتها.

تلـك الألـواح الخشـبية مثبتـة بمسـامير علـى مسـند آخـر يزيـدها سـماكة لتتحمـل ثقـل أوزان العـابرين عليهـا. مـن خـلال الملاحظـة وجـدت مسـند طاولـة مدفونـة تحـت صـخرة متوسـطة الحجـم تقـع أسـفل المعبـر مـن نهايتـه، كـان المسـند مـدفون فـي الجانـب الأيمـن مـن الصـخرة التـي يسـتند عليهـا المعبـر، وهـذا المسـند يطـابق مسـند الطاولـة التـي كسـرتُ أحـد قوادمهـا، بـذات الحجـم والقيـاس. فقلـت مـع نفسـي بـأنَّ الله أرشـدني إلـى هـذه النقطة النائية لأصلح ما عبثت به في بيت صاحبي.

في داخلي كنت حبورا، بإزالة حالة الحرج عن ذاتي. وكأن المسند دلني بذاته على مكان تواجده لأسوي به أمر الطاولة.

لذا صرت أسحب اللوح من باطن الارض مبذلا قصاري جهدي في ذلك، والذي كان مدفونا في التربة لغاية نصف طوله، أي بمقدار نصف متر تقريبا، حركته يمينا ويسارا حتى تمكنت من سحبه وإخراجه رويدا رويدا سليما، لخشونة التربة التي دفن فيها ولعمق المدفن.

وأنا احاول سحب اللوح مبذلا جهدا مضنيا، العرق يتصبب من جبني؛ وجدت رجلا من الطرف الثاني من النهر يهذي ويصرخ ويسب ويلعن باللغة الكردية وكأنه جن جنونه، كأنه وجد غثاثة ما من شخص أغاضه، أو تخيل شيطانه يعيق عمله. هكذا وجدته يرطن بكلام لا أفهمه ولا أفهم الشخص المقصود من وراء هَذَّاءُه. لذا جاء مسرعا وهو يربد ويعربد بصوته الأجش ناويا عبور المعبر.

التفت يمنا وشمالا فلا يوجد شخص آخر غيري في المكان، لذا تيقنت من أنه مهبول، أو مجنون، غير سوي، لأن منظره المشعشع يدل على ذلك، كان يرتدي فانيلة بيضاء وشروال أسود مكفوف لحد الركب.

تركته يسب ويلعن، فلم أهتم به، لم أعر له أهمية، ماذا سأقول لرجل مجنون يهذي مع نفسه، ثم أني لم أفهم لغته وماذا كان يقصد ومع من يتكلم؟ ثم أنه لا يهمني من قريب أو بعيد، فلم اشغل بالي به.

هكذا سيرت الامور وأنا أشنف إليه بنصف عين وهو يعبر المعبر، كان مزاجيا، عصبيا جدا، لذا ما أن تجاوز نصف مسافة المعبر؛ حتى سحبت المسند من مكانه.

بعبوره كان المعبر يهتز، يتحرك تحت قدميه، لم يسيطر على ذاته، هوى به ونهار لوسط النهر، سقط في وسط مجرى النهر الموحل، صار يطبطب بيديه ورجليه محاولا إنقاذ نفسه من الغرق دون جدوى، لسرعة جريان النهر وعمقه، صار التيار يجرفه دون أن يستطع مقاومة ذلك.

اكتشفت بأنه لا يعرف العوم، همت بمد يد العون إليه. اللوح الذي بيدي كان قصيرا لا يفي بالغض، لذا أحترت في طريقة مساعدته وهو يغرق، وقبل أن يغطس ويذهب في خبر كان، وجدت حبلا مرميا على جانب من الجرف، فرميت له رأس الحبل فتشبث به، حينها تمكنت من سحبه لجرف النهر.

بعد أن نفض العناء عن جسده وأعاد توازنه، ساعدته على النهوض، قلت له:...

- الحمد لله على السلامة... لولا صادف وجودي في المكان لكنت قد مت، كيف تعبر للجهة الثانية وأنت لا تعرف السباحة؟
- لعنة الله عليك وعلى اليوم الذي ولدت فيه!!
- لم يا أخ؟
- أأنت عربي؟
- نعم.

- لِمَ ترتدي الملابس الكردية؟
- اها....تلك حكاية طويلة، قلي كيف تشعر الآن؟
- أشعر بالزفت والقرف.. يوم أسود الذي رأيت فيه وجهك.
- لِمَ يا أخ هذا التهجم والتجاوز؟ قبل قليل أنقذتك من الموت؟
- يا غبي؛ أنت الذي أسقطني في النهر، لقد رفعت اللوح الخشبي من تحت الصخرة، أختل المعبر وسقط، لولا وجودك الشيطاني ما كنت سقطت في النهر، اللوح الذي رفعته كان سندا للصخرة التي بني عليها المعبر، برفعك اللوح تحركت الصخرة عن موضعها، فمال بي المعبر وسقط في النهر، هل فهمت جريرتك أيها الغبي..

بقيت ساه لا أعرف ماذا أجيبه وأرد عليه، بت أتمتم بكلمات الآسف التي صارت تتطاير من شدقيَّ، حينها فهمت لماذا كان يصرخ ويعربد كالمجنون، إذا كان يصرخ عليَّ أنا، كان يتكلم باللغة الكردية التي لا أفقهها، لقد توقعني كرديا من ظاهر الملابس التي ارتديها، فيما توقعته مهبولا بسلوكه الأشعث وجعجعته الفاضية. توقعني مخربا، عبثيا، بينما توقعته فضا غثيثا، لذا لم أرد عليه بكلمة قط.

المسكين أضطر أن يعبر المعبر ليزجرني ويوقف عبثي الذي تجاوز حالة القدر والنية دون أن أدرك نتاج سلوكي.

هههههههه، أيه يا دنيا.....كم من حوادث عبثية تودي إلى نكبات جسيمة دون قصد، بحيث من النادر أن تجد ما يجري بين يديك يميس ما في ذهنك.

من نكد الدنيا

أن تجد أُناسا تغلك

وتغشي ذاتك بسماجة الأقدار

أن تجاوزت الشك أمنت

وإن اظلتك العين

فلا عاصم من النار.

# مكتب السفريات

خلال وقوفنا أمام مبنى المطار والذي لم يدم سوى دقائق قليلة، توقفت أمامنا عجلة باص صغيرة ذات 12 راكبا، نزل منها سائقها وكأنه لاحظ علامات بؤس قانطة في وجوهنا فود أن يصلح شأننا، لذا صار يتفحص وجوهنا بنظراته وكأنه يبحث عن رأس العقدة، من تلك اشكالات التي قد تصيب فكر الشخص إذا ما تعرض لازمة أو نصب أو عقدة المت به.. فلم يصبر طويلا حتى تقدم منا سائلا بلكنة عراقية ضعيفة....

- هل أنتم مهاجرون؟
- نعم.
- هل من خدمة تحتاجونها؟

فاجأنا بسؤاله، فقال له وسام:.....

- كانت لنا نية السفر بالطائرة، لكنهم لم يسمحوا لنا بالسفر عبر الورقة الخارطية، طالبونا بعرض الجوازات، غير اننا افتقدناها.

عقبت بعده...

- كنا نتوقع الأمور ستكون ميسرة لنا في المطار باستخدام الورقة الخارطية، هكذا افهمتنا موظفة مكتب السفر، لقد تورطنا، كما اننا سجلنا اسمائنا ضمن القوائم السورية، حيث أدعى وسام بأن العراقي يحتجز في الميناء بينما السوري يطلق سراحه.

على أية حال تلك المشكلة عادت علينا بالمنفعة بعد أن منعنا من السفر عبر المطار، حيث علمنا من ذوات الخبرة، بأنه إذا ما نزلنا في مطار أثنا فأنهم سينتزعون منا بصمات ايادينا، وبالتالي لن نستطيع دخول أوربا، ستمثل عقدة لنا في البلدان التي نرغب أن نصل إليها حسب اتفاقية دبلن المعمول بها.

- والله يا أخي صديقي محمد هو الذي وجهني، هو الذي أدخل الفكرة العراقي والسوري في رأسي، كونه صاحب تجربة سابقة، ربما تغيرت الظروف.

حينها رد سلام علينا بعد أن عرفنا باسمه قائلا.

- لا لا.. لا داعي أن تغيروا انتماءاتكم فالتعامل مع الجنسيات الأخرى لا تختلف عن تعاملاتهم مع السورين، ومسألة تغيير الخارطية سنحلها لكم، إذا كنتم ترغبون بالعودة لمركز الجزيرة، ممكن أنقلكم لهناك، لكني أنتظر زملاء لي سيصلون من الدنمارك خلال عشرة دقائق.

- شكرا لك أخي، الظاهر أنك أنسان طيب وكريم، لابأس؛ ننتظرك نحن بحاجة لرشدك.. هكذا أجبته.

أجبته بعد أن وجدت في يده فرصة انقاذنا من التيه، نحن بحاجة لشخص ذا خبرة في الجزيرة، يرشدنا، يحل إشكالات الخارطية. نعم انه لم يكن ذربا في لسانه ولكنه كان يجيد العربية بشكل جيد، كما أن ملامحه تدل على أنه إنسانا خدوما، لذا فضلنا انتظاره وخاصة في الجزيرة تندر حركة التكاسي لقلتها. وحين عاد بصحبة زملائه سألته:....

- يا أخي ملامحك لا تدل على أنك عراقي الجنسية، ولكن لهجتك تبصم بعراقة عراقيتك، هل أنت عراقي؟
- أنا مهجن من أب عراقي وأم روسية، مقيم في الدنمارك.

رحبنا به للطافته وبشاشته، سررنا في دواخلنا لبساطته وإنسانيته، شاكرين رغبته ومسعاه في أبداء مساعدته لنا...

- لا داعي للشكر، نحن في الأصل جئنا من الدنمارك كمجموعة من الشباب متطوعين في خدمة المهاجرين...
- بارك الله فيكم، حيث الغيرة تنبع من أصلها.

سلام شاب عشريني، أنيق، وسيم، طوله بحدود 185 سم تقريبا، قوي البنية حيث بنيته تدل على انه من هواة

الرياضة، ذات ملامح جذابة مطعمة بحمرة الروس وملح الفتنة العراقية الجنوبية.

للطافته، وبداهته، ولباقته، كان مؤثرا في مجموعته بشكل كبير، بل شعرت به بمثابة المحور الذي تدور عليه العقد، فعلا كان قائدا للمجموعة. أشعرنا بفرط طيبته وخفة دمه ودماثة روحه، ذات جسد مفتن بالعضلات، تحيط ذقنه لحية خفيفة، تهجس بابتسامته فيها لين كندى الصبح حين تغسل ورق الشجر الأخضر، هكذا تغسل وجهه ببشاشة رقيقة.. مثلما تصرف معنا بمسؤولية؛ تصرف بذات المسؤولية مع كل مهاجر يصادفه، كان جادا في مساعدتهم، محاولا تقديم ما يمكن تقديمه لهم وإرشادهم وتوجيههم..

كان لا يتجاوز الخامسة والعشرين ربيعا، حيويته أجازته ليكون قائدا لزملائه الذين يزيد عددهم عن عشرة أشخاص، لفرط نشاطه وقوة بدنه وحلمه وصفاته وقدراته اللغوية، حيث كان يجيد الألمانية والدنماركية والروسية واليونانية والإنجليزية إضافة إلى اللغة العربية التي أعطته صفة القيادة المطلقة، كون معظم المهاجرين هم من أصل عربي، لكل ذلك كان يستحق أن يكون في مقدمة مجموعته المكونة من فريق من الفتيان والفتيات.

بصراحة حين دخل في وسطنا دخل ببساطة وسلاسة كدخول الضوء لكوة مظلمة، كأنه يحمل في يديه مفاتيح خديعة سحرية لحل المعضلات والعقد التي تواجه المهاجرين في

تلك الجزيرة، كالذي يحمل في جيبه خرزة لحل المشكلات حسب المعتقد البائد والذي لازال البعض منا يمارسها من المشعوذين والدجالين.

في البداية لم نكن نفهم سر تواجده في هذه الجزيرة وإصراره على مساعدتنا، وخاصة حين وجد بيننا نساءً وأطفالا. في البداية توقعنا الحمية دفعته لمساعدتنا، حين تتقد فتيلة الحمية في النفس العراقية، تشتد انفعالات الغيرة داخل النفس الابية كصفة الجنون فينسى ذاته، فيندفع برعونة لتقديم المساعدة، هكذا مد يد العون لنا والتي كنا بحاجة ملحة لها..

لكن حيرتنا لم تطول بعد وصول أصحابه، كانوا ثلاثة أشخاص، فتاتين ورجل. الفتاتان يغلب على بشرتهن سمرة شفيفة، يملن بسماتهن لسمات الملامح العربية، فيما الشاب كان أشقرا، ذات وجه مغشي بلحية حمراء وعينين زرقاوين غائرين في محجريه، يحمل السمة الأوربية.

بعد أن عرفنا بزملائه دفعني الفضول إلى التعرف على الفتاتين للسمرة الرائبة في بشرتهن وحلاوة ملامحهن، وقد بينت لي أحداهن وكانت تدعى سميرة بأن أصولها من أمازيغ المغرب

دلفنا جميعا في باصه، وكان قد وزع على الأطفال الشبس والعصير، حيث كان يحمل في صندوق عجلته كرتونا كبيرا من الساندويشات وآخر من العصائر..

خلال الطريق عرج بنا إلى الشقة التي آوتنا ليلة أمس، لكننا وجدناها قد حجزت من قبل آخرين بعد أن تركناها مباشرة، لذا عكف على توصيلنا لمركز الجزيرة عسى أن نجد فيها فندقا يأوينا.

خلال الطريق عرفنا بنفسه وبالمجموعة قائلا..

أنا أسمي سلام محمد، نحن نعمل في منظمة خيرية إنسانية، تطوعنا بالمجيء إلى هنا لمساعدة اللاجئين والمهاجرين بالمأكل والملبس وبالخدمة وتذليل العقبات وأي شيء يسعنا تقديمه لهم، وكل ذلك على نفقتنا الخاصة دون مساعدة الجهات الرسمية..

وكنا في تيه من ما تطرق له، حيث لا نعرف شيئا عن تلك المنظمات، لكني سألته بفضول:...

- يا سلام من أين أنت من العراق.
- أنا لم أرى العراق في حياتي لقد ولت في الدنمارك، ولكن أبي من مدينة الحلة. أجيد الروسية والإنجليزية والدنماركية والألمانية، وافهم اليونانية وأنطق العربية.

كُنا قد عبئنا صندوق الباص بحقائبنا إلى جانب كراتين السندويشات والعصائر والشبس. بعد أن وجدنا تلك الشقة التي عولنا عليها قد حجزت؛ رافقنا لمركز استقبال المهاجرين لتغيير الخارطية من الحالة السورية إلى الحالة

العراقيـة.. رافقنـا لنقطـة التسـجيل التـي ابتـدأنا منهـا مشـوارنا، لـم نتـأخر فيهـا طـويلا، فخـلال عشـرة دقـائق تمكنـا مـن تغييـر الخارطيـة بعـد أن خـاطبهم سـلام بلغـة لـم نفهمـا وعلـى مـا أظـن كانـت يونانيـة أو ألمانيـة.. ومـن ثـم عـاد وأوصـلنا للمركـز قـرب مكتـب السـفريات والـذي يجـاور كافتيريـا الميناء فـي مركـز الجزيرة.

كانـت تـدير الكافتيريـا الكائنـة فتاتـان معطرتـان بالسـحر والجمـال. ولقـد شـغفتُ بتلـك اللدنـة الهيفـاء، العفـراء، الرشـيقة، الرقيقـة، النداحـة، التـي يشـع مـن وجههـا البهـاءً، ذلـك الوجـه الرائـق المضـاء ببشـرة مغنجـة بسـمرة شـفيفة ملـداء، ملسـاء، فتبـدو أشـبه بمـرآة عاكسـة للأنـوار بإشـعاعها الـدافئ الـذي تصيب به عيون المارقين بها.

صـرت أتمعـن بالعقـدة المـدفون فـي سـر تلـك البشـرة الخمريـة والمغنجـة بالجاذبيـة، الموشـح بهـا تقاسـيم ملامـح وجههـا الناهـد. ترتـع بصـفة نغامـة، بحيـث يـرحن الـذهن والنظـر للـذي يـتمعن بملامحهـن، لمـا فـيهنَّ مـن لغـز يثيـر الفكـر ويرهـق القلـب، بالـذات تلـك السـمراء التـي شـغلت بـالي. بتلـك الخلطـة مـن الألـوان المشـظة مـن العـين السـحرية والشـفاه الكرزيـة القرمزيـة؛ كانـت تفتـك بالأفئـدة المرهفـة والمرهقـة، بطلتهـا تسـتحوذ علـى الأحـداق والقلـوب دون عنـاء وتكلـف، وكـأن فـي قوام قدها يكمن سحر يجرد الشخص من قيافته وشخصيته.

خلال عملها وهي تدور في أرجاء الكافتيريا، كانت تبدو كنحلة تنثر ذلك السحر والعبق على الزبائن، وجدتها إمرأة وذيلة، نشطة، مثيرة، فعلى فيض ضوع عطرها تكسب الزبائن، أشبهها بقطعة حلوى شكرية، ملونة، تدور حولها الحشرات..

ببشرتها المملوحة يكمن سيف سلطانها وقوة جاذبيتها، خاصة أنها مدعمة بشفة غرة رقيقة محمرة كأنها قطعة من الكبد لدكنة اللون الذي يغشيها، أنف مبروم مقدم بشموخ يبدو كتمرة ناضجة، تتمتع بعين ظبية عربية حرة، في وجهها لسعة صيف وإشراقة صحراوية... كانت تثير شغف المارقين بها، هؤلاء الذين جفت عروقهم في أبدانهم؛ يمطرونها بوابل من سهام الاعجاب بنظرات فيها شك وريبة ونية مدفونة في أعينهم اللحوحة الجارحة لما لها من جاذبية، وهم يركنون ذواتهم على قلوبٍ دَكّها الهوان..

ما أن يغوص المرء بصفاء وجهها حتى تتساقط شواظ حدقات عينيه الملتهبة على جليد أسيل خدها وجناتها، فتغشيها الخجل، فتزيدها لوعة وألقا واحمرارا وتأففا وجاذبية. فتبدوا الخدود كجلنار يقدح في صحن وجهها. لا بل بنظرة واحدة لملامحها المشظة، يتيه الشخص في أعماق ظنه وتأملاته المنغمسة بعمق تلك الفتنة المحرزة، فيذهب بها بعيدا في تأملاته حتى يصل إلى دثار فرشته وسهده وتسمره مع تلك الفاتنة السمراء..

كانت الشفاه مطلية بحمرة عنابية، مستسقاة من لون اللافندر، فتبدو كجذوة مشظة ملتهبة في بساط الوجه. فيما أنفها السمق الرشيق بعطفته الحثيثة، يزيدها ألقا وسحرا وجاذبية، كشراع يضفي ظلاله على محاسن الوجه. فيما تغطي حدقاتها بظلال غسقية غائمة، تشعر الناظر بعمق الخيال، تلك الظلال ترفقها بفتنة مسائية، فتبدو عينيها للناظر كواحة مكللة بسحر المساء والبيد ورمله..

كأنها وضعت في الكافتيريا بشكل مقصود لجذب الزبائن، لجلدهم بمغريات حسنها الفتان وغر الجسد اللدن وطيب الضوع الفائح منها.

بعد أن أوصلنا لهذه النقطة ودعناه وأصحابه لكثرة أشغاله المتعلقة بالمهاجرين المتدفقين إلى الجزيرة كسيل جارف، ولكنه حين غادرنا لم يتركنا: حيث قال لنا بطيب خاطر:....

إذا ما احتجتم لأية مساعدة أتصلوا بي فلن أقصر في خدمتكم. وهذا رقم هاتفي...0000000000.

أملى علينا رقم هاتفه ثم تركنا بروح مفعمة بالرضا عنه وعن زملائه، لقد ترك فينا جمرة تستعر في الذاكرة لما له من تأثير نفسي لمسناه بقلوبنا قبل أعيننا وأيادينا. كان شفافا، واضح عمقه قبل ظاهره، وصل بنا حد كسر الحواجز وملامسة المشاعر، رغم قصر المدة التي تعارفنا بها..

صـرنا نسـتقرأ شخصـيته الإيجابيـة فـي المطعـم والمقهـى ونحـن نتجـول فـي شـوارع الجزيـرة القليلـة، حقـا هنـاك أنـاس لا يتثمنون، ومن الخطأ الحكم على البشر من نظرة خارجية..

وبعد راحـة أنعمنـا بهـا أجسـادنا وغـداء ملئنـا بـه بطوننـا الخاويـة، توجهـت ووسـام إلـى مكتـب السـفر القريـب مـن الكافتيريـا لتغييـر تـذاكرنا مـن فئـة الطيـران إلـى فئـة البـاخرة، والتـي سـتتحرك لأثنا مساء اليوم التالي في تمام السابعة مساءً.

اتجهـت لمكتـب السـفر برفقـة وسـام الـذي لا يفقـه شـيئا مـن اللغـة الإنجليزية.. بعد أن استمعت الموظفة لطلبنا قالت لنا:....

- عـودوا لنـا بعـد سـاعتين؛ حتـى يباشـر المـدير عملـه لنأخذ رأيه في الأمر.

حينهـا أسـتلف وسـام منـي مبلغـا قـدره 40 يـورو لشـراء بعـض الحاجيـات لأطفالـه، ثـم تركنـي وأبنـي فـي المقهـى أمتـع ذاتـي بفتنة تلك الساحرة وببشرتها اللاذعة وعينيها الثاقبة الزرقاء.

كنـت أهجـس بأنهـا هـي مـن تبـدي حرشـتها بالزبـائن دون قصـد منهـا، للفتنـة المشـعة فـي بشـرتها، لحلـو معانيهـا والنعومـة الغـائرة فـي قـوام جسـدها، أشـعر بهـا تلسـعني بفتنتهـا كلمـا مـرت مـن أمـامي وهـي تتحـرك جيئـة وذهابـا فـي تقـديم طلبيـات الزبـائن، وصـفتها بالشـمس وهـي تلاطـف الوجـوه المارقـة بهـا بـدفء حـرارة ووهـج فتنتهـا فـي يـوم تسـوده جمـود وعنـاء. فـي الوقـت الـذي بـه تحـاول أن تزيـغ عـن سـهام العيـون الجارحـة،

الموجهة عليها، تحاول التملص من مشاغبة الجاحدة منها، أن تنزوي في جحر الكافتيريا لأطول فترة ممكنة. لكن عملها يملي عليها واجبها في خدمة الزبائن.

كنت أنظر لها وكأنها ليست من صنف البشر، اهجس بها حورية تجلت بروحها الشفافة من عمق البحر، اكتسبت منه لون عينيها، ومن ملحه وشمسه سمُرت شرتها، مثلما أضفى عليها بريق الفتنة القى عليها وشاح هدوء ساحله..

كانت تتبختر في مشييها، لنحافتها تشعر بضمور خصرها، فيما كانت أزرار قميصها الزهري المطرز بالدانتيل والمصنوع من أقمشة شيفونية مفتوحة. مع ارتخاء وهدل ياقة القميص، تكشف عن جزء مثير من شطط شحوم الصدر ترق تحت القميص، بحيث خلال دورانها وانحناءتها تفلج عن عالم خفي يرتع خلف فج الفستان من لدانة الثدي الناهد كعجرة رمانة ناضجة... ما أن تميل في عملها أو تنحني في تقديمها متطلبات الزبائن؛ حتى تترقرق تلك العجرة بلطافة تكورها، فيطل جزء منها من خلف غمام قميصها الزهري الشفيف، كقمر يتهادى بين الغيوم يلفت الأنظار أليه، لسحر ذلك التكور والأنوار المشعة من حوله. بفتنتها تعكس سهام المارقين بها إلى أفئدتهم المرهقة، المراهقة، فتأسر هواجسهم. كانت ترتدي حمالة صدر بيضاء من النوع الرف الساند الذي يرفع الثدي ويكوره. حينها كنت أميد ببصري إلى تلك النجوم الغافية تحت ذلك الرداء،

محاولا تتبع مسار القمر المواربِ الذي يطل علينا بين فترة وأخرى من خلف غمام قميصها الشفيف..

فيما أضحت الروح تتلوى وهيَّ تتبع ظلها، تحاول أن تنط من قبضة يدي لمرسى المركب الدائر في بحر فتنتها. تلك الأفعى التي تلبست ذاتي؛ تسعى لإثارة الفتنة ما بيني وبينها، وهي تلهث خلف تلك الحمامة الجاثمة في عشها الضامر.

كنت أهجس بذاتي طفلة تود اللعب، لا تأبى مفارقة المقعد، أشعر بذاتي الداخلية تعاتب ذاتي الخارجية على سكونها وتقوقعها خارج أسوار تأملات النفس ونية المواجهة. تلومها على انزوائها في جحورها بعيدا عن قدرية الحالة، غارقة في تأملات عقيمة، غير مجزية، غير مجدية، خذلة في ومواجهة السحر الرابض في مفاتن وأعماق تلك الساحرة.

لم تسعفني طاقتي لمواجهة حقيقية تطفلي، لأطفأ شرر النار المستعرة في فؤادي، بين لحظة وأخرى أهجس بالروح تشذ عن طبعها، تود بشكل ما أن تصطدم ككرة بجدار تلك الساحرة، لتهز أشجانها، لتسقط ثمارها، لتدخل أسيرة نجوى في جوف العقد الدائرة حولي، تود أن تقتحم الحواجز المنيعة لتجردها من سمة الجبروت الملتصقة بها، لتميل إلى ضعف إرادتي هنيهة، عسى أن تعيد إليَّ كياستي.

في الحقيقة وجدتها تعتدي على سكينة الزبائن بالفتنة المشعة من ثنايا قميصها مقور من الظهر وتنورتها مقورة من جانب

ساقها الأيسر، بحيث تُظهر ما خفي من سحر الظهر والساق للزبائن، فتزيدهم عبثا وتطفلا.

أهجس بها كموجة زرقاء تعبث بإرادتي كيفما تشاء، تبعتها فتبعت تأوهاتي، ودتُ ان أتنفس من خلالها الصعداء. أهجس بها كتمت على أنفاسي؛ بعد أن رقصت الذات على نشيد عزفها، ودتْ أن تكلمها، أن تحتك بها بأي ثمن، حتى ولو على هامش الطلبية التي سندفع ثمن المغامرة بقيمة الأشياء التي نشتريها مقدما..

وأنا أتبع هدير موجها كنت أهجس بقسوة ذاتي الخارجية على روحي الترفة وهي تحد من عزمي، تقيدني، تذكرني بالقيم والأخلاق التي تربيت عليها، متمسكة بمبدأ الخُلق والثبات. كانت تحسب حسابا لقيمة الغربة بدقة متناهية، كي لا أنحرف أو أشذ قيد أنملة عن خط مسارها لوهدة الشواذ، والظلال. دائما ما تطرق رأسي بمطارقها الرنانة، تذكرني بقيمي وعاداتي ومكانتي...

دائما ما تطرق راسي بعبارة، "يا غريب كن أديب".

فيما لا تفارق ذهني أغنية المطربة عفيفة أسكندر (ديار غربة)

ديار غربة وتهت بيها .. ديار مالي بخت بيها.

صحت وين أهلي وين... جاوبني الصدى وين...

يا غريب أذكر هلك.....

كل تلك الثورة قد أحدثتها تلك الفتاة في داخلي وهي أبنة الثلاثين عاما أو تزيد، فكيف بها لو كانتْ صبية في سن العشرين أو دون ذلك؟؟؟؟.

كيف كان إشعاع ذاك السحر والألق حين كانت في أوج شبابها وحيويتها ونشاطها؟ وهي لازالت في سن يرتع بالشفافية والحيوية وعنفوان المراهقة، كيف؟

لو كنت في سنها؛ لقلعت ذاتي ورمتها لوحوش اليم، لجعلتني طعمٌ لأسماك القرش الجاثمة فيه، لربما صنعت من ذاتي خاتما لبنصر كفها.... نعم للزمن حكمته وسوطه، إلا أني وجدته عطوفا جدا مع تلك الأنثى، بحيث لم يغير من جبروت حسنها شيء يذكر، لا بل زادها كياسة وصفاء وبصيرة ووقار..

ما أن رجع وسام من مشواره حتى ذهبت معه لمكتب السفر، وسألت الموظفة على محاولة تغيير التذاكر من فئة الطيران لفئة السفر بالباخرة...حينها أجابتني الموظفة بشيء من الشدة والقسوة بحيث لم يكن في تعاملها أية مرونة لتغيير تذاكرنا، كانت إجاباتها قطعية لا مجال فيها للتحاور أو لتجاوز العقدة حيث قالت..

- لا يمكن تغيير التذاكر، وتذكرة الطيران أصبحت محروقة، ولكن يمكن أن نعيد لكم ضريبة المطار التي قيمتها 100 يورو كونكم لم تسافروا.
- لكننا دفعنا 900 يورو وهذا ليس عدلا.
- آسفة لا أستطيع مساعدتكم، أنا ألتزم بالتعليمات.
- وكم هي تكلفة الشخص في رحلة الباخرة.
- الطائرة تكلفتها 120 يورو، والباخرة 70 يورو للشخص الواحد..
- كنا خمسة بالغين بتذكرة كاملة أنا وأبني الذي تجاوز عمره حدود سعر تذكرة الطفل، فيما كان وسام وزوجته وأمه وطفلان بنصف تذكرة، أي علينا دفع 420 يورو إضافية..

حينها أتصلت بسلام وشرحت له الموقف، وخلال مكالمتي له طلب مني أن يهاتف الموظفة ليستفسر منها عن اللغط الحاصل، وليتفهم العقدة ويتفاهم معها في أنصافنا. بعد جدال واضح لم أفهم من المحاورة شيء زعقت الموظفة في وجه سلام ثم أعادت الهاتف إليَّ، حينها قال لي سلام...

- لا تخرجوا من المكتب نحن في الطريق قادمون إليكم.
- بقينا ماكثين في المكتب لعشرة دقائق تقريبا بوجود المدير الذي حاولت معه أن يلين دون جدوى، حيث أبى أن يتساهل معنا ويساعدنا، ولم يعر لنا أي اهتمام بتاتا.

بعد عشرة دقائق تفاجأت بدخول سلام للمكتب مع مجموعته والذين يزيد عددهم عن عشرة أشخاص بكامرة تلفزيونية وأضواء بلوجكتورية ومايك وجهاز تسجيل وجهاز أرسال بكامل جماعته، أشبه بفريق تلفاز متحرك. البعض يرتدي قمصان الأمم المتحدة وآخرون يرتدون قمصان الصليب الأحمر، دخلوا كمجموعة وبشكل مفاجئ، وبفوضى، وبحركة غير متوقعة، أحدث دخولهم ضجة مفعمة بالغرابة بين الموظفات والزبائن القابعين على كراسي الانتظار، ربما أول مرة تحدث في مكتبهم مثل هذه التعرية. كأنهم يبحثون عن سبق صحفي، كأنهم قد تمكنوا من وضع يدهم على صيد ثمين داخل المكتب محاولين تعريته وفضحه أمام الزبائن وأنظار العالم، لفضح أساليبهم الملتوية وعملية ابتزازهم ونصبهم على المهاجرين عبر شاشات التلفزة.

الصورة التي دخلوا بها للمكتب، أصابت المكتب وموظفاته بالشلل تماما، بحيث الكل توقف عن عمله وبقيَّ مشدوه الفكر والنظر، صعقتهم الحيرة، كبلت أياديهم وألسنتهم بغرابة السلوك والاستفسار... ترى ماذا هناك؟ صغروا في دهشة وهم يصغون إلى الوجوه التي عبثت بأفكارهم وزلزلت كياناتهم، صاعقة تفرقعت فوق رؤوسهم على حين غفلة، شتت أذهانهم أصابتهم بارتعاد وارتعاب وخوف من ما سيحدث.

مثلما أصابتنا المفاجأة، صرعت الجميع، وبالذات موظفات المكتب، الكل تجمد في مكانه حين شاهدوا الكامرة

التلفزيونية تدور حول وجوههم وتلتقط لهم صورا شخصية واحدا تلو الآخر، أنها هجمة صحفية لحدث جلل قد وقع في المكتب.

بدخول سلام كان قد أشار إليَّ لأعرفه على الموظفة التي هاتفته، فأشرت إليها بأصبعي.. حينها توجهت الكامرة عليها وصار يزعق ويصرخ بوجهها بشيء من اللباقة والمسؤولية مستخدما اللغة الإنجليزية... حتى جعلها تصعق وتصرع في مكانها، أطفأ بريقها، كسيجارة دعس عليها بحذائه، بحيث لصمت فاهها لم تنبس بشفة. أخرست تماما في مواجهته، باتت تنظر إليه بعينين واجفتين وهي مرعوبة، تتأمل منه الصفح على خطئها بعد أن صارت تعتذر منه بشكل متلعثم وعلني، كنت أشعر بارتباكها، كانت ترتعب خوفا من أن تنعكس الحالة على مستقبلها الوظيفي، قد تصل بالإدارة إلى أتخاذ قرار بطردها من المكتب لتجاوزها على الزبائن وخاصة نحن مهاجرين، أي متضررين، متعطشين للرأفة. حيث كانت تصغي لسلام وهو يؤنبها قائلا لها:...

- من أجلسك خلف المكتب لتعاملي الزبائن بعنجهية وقلة ذوق، كيف أكلمك وتزعقين بوجهي وأنت تدركين ذاتك على باطل. (موجها كلامه للجميع). لعلمكم هذا الذي تشاهدونه هو أرسال حي لقنوات التلفزة سيشاهدها العالم بأسره ونحن نعرض عمليات النصب التي تقومون بها في استغلالكم لضعف المهاجرين، هؤلاء المساكين الذين هربوا من جحيم

الحرب ليلاقوا هنا جحيم النصب والاحتيال، ليجدوا حربا أخرا ومن نوع جديدة...

هنا أصفر وجه الموظفة بقيت ساكتة، صامتة، بعد أن لصمها بقوة دخلته عليها وعلى المكتب، وبعد أن درات الكامرة في تصوير الموظفات الأخريات، توجهت الكامرة إلى مكتب المدير الذي كان يجلس بزاوية من المكتب خلف الموظفات، على الجانب الأيمن، وهو غير مصدق جدلية الحالة. هو الآخر صعق وصرع ودهش من الهجمة التي قام بها سلام وشلته بإضاءة بروجكتر نيوني على الوجوه حاملين كامرتهم التلفازية وجهاز الأرسال وجهاز التسجيل بمعية زملائه الذين تجاوز عددهم عشرة أشخاص، كل جاء بصفة معينة، منهم من يحمل آلة بيده، وآخر مثل دور الصحفي وهو يسجل ملاحظاته في سجل خاص، وآخر منشغلا بجهاز التسجيل، وآخر رافع عمود الإنارة الساطعة على وجوه الموظفات، وآخر يتجول بكامرته التلفزيونية، فيما الفتيات مرتديات قمصان شفافة تدل على منظمة الإغاثة للأمم المتحدة، أحداهن تحمل بيدها سجلا كبيرا، وأخرى مرتدية قميص الصليب الاحمر...الخ.

كان سلام قد أدعى أنه يمثل عدة منظمات إنسانية، الإغاثة والصليب الأحمر ومراسل لقناة فضائية ويعمل لجهة الأمم المتحدة، وهو معني بنقل الحقائق والمعاناة التي يتعرض لها اللاجئ للعالم، وما يتعرضوا له من قبل الآخرين خلال الوصول وبعد الوصول..

توجه سلام إلى المدير وهو الذي بشكله وقيافته تنطبق عليه صفات الصحفي مهددا قائلا له:.....

- خلال 24 ساعة سيتم غلق المكتب أو عليك حل مشكلة المهاجرين بالحسنى، كيف تعبثوا وتنصبوا على هؤلاء المساكين الهاربين من جحيم الحرب، كيف تعطوهم تذاكر سفر طيران وهم بالأساس لا يملكون جوازات سفر، ثم هم في الأصل عراقيون وأنتم قد منحتموهم تذاكر سفر بهويات سورية، مستغلين جهلهم للغة اليونانية، كل تلك الإشكالات سنعرضها ببث مباشر من خلال قناتنا، أو تحلوا المعضلة حالا.

المدير أخرس وصار يتلعثم وسلام يطلق رصاصاته بوجهه واحدة تالو الأخرى، بحيث لم يدع له مجالا للتنفس ليجيب براحة وهو يرى كم الرصاصات التي توجهت إليه، أضحى أمام سلام كسدادة الرمي يتلقف رصاصاته، وهو واقف على رأسه كأسد ضرغام يود افتراسه، فيما لصمت المدير تهجس به كثعلب تفاجأ بدخول الأسد لوكره. وهو يفند له خطئهم قائلا..

- الغلطة الأولى وقعت بها الشرطة التي أخطأت بإعطائهم أوراق سورية وهم بالأصل عراقيون، والغلطة الثانية من المكتب الذي قطع لهم تذاكر سفر دون أن تطلع الموظفة على حقيقة أن كانوا يحملون

جـوازات سـفر أم لا.. فمـا هـو ذنـبهم وهـم لا يعرفـون لغـة التعامـل فـي المكتـب ليتحملـوا خسـارة 900 يـورو؟ لـذا علـى المكتـب تحمـل غلطـة الموظـف وإلا نرسـل تقريرنا التلفزيوني حالا..

تلـك الصـورة أرعبـت المـدير الـذي بـات يتوسـل بسـلام بـأن يوقـف التصـوير والتسـجيل وهـو جـاهز لكـل طلبياتـه، وحـل المشـكلة وديـا..... تـم إطفـاء الإضـاءة والكـامرة وأوقـف التسجيل وقال له سلام..

- حـول تـذاكرهم مـن فئـة الطيـران إلـى فئـة السـفر علـى متن الباخرة وأعد الفروقات إليهم..
- ممكـن نعطـيهم تـذاكر بـاخرة علـى حسـاب المكتـب، ولكـن الفروقـات لـن نسـتطع إعادتهـا لآنهـا سـجلت فـي برنـامج الكومبيـوتر الـذي لا يمكـن التلاعـب بـه، وهـذا يعني بأننا سنخسرها من جيوبنا..

هنـا أتفـق معـه سـلام علـى إعطائنـا تـذاكر السـفر لنبحـر علـى مـتن البـاخرة بعـد أن أخـذ رأيـي فـي الموضـوع، وقـد أخبـره المـدير بـأن البـاخرة ممتلئـة تمامـا ولا توجـد غـرف شـاغرة بهـا، إلا على سطح الباخرة..

فأومـأت لسـلام بالموافقـة، وقلـت لـه أنهـا ليلـة مـن الممكـن تحمـل مشـقتها بـدل الانتظـار لأربعـة أيـام أخـر حتـى تعـود البـاخرة مـن رحلتها المكوكية.

بذلك أمر الموظفة إعطائنا تذاكر الباخرة، أستلم سلام تذاكرنا كاملة، ثم خرجنا من المكتب منتصرين بوجوه مفعمة بالنشوة بفضل ذلك الشهم الذي برع في إدارة الأزمة لصالحنا، خرجنا وبسمة النصر مرسومة على الوجوه قاطبة بما فيهم مجموعة سلام الذين انبهروا من فرض قدراته على المكتب. كنت أشعر بهم أكثر فخرا وفرحا منا، الفتيات يبتسمن، الشباب مبتهجين، فيما غص وجه سلام بنشوة عذبة بانت في عينيه، حينها عبر عن نشوة اصابته رافعا يده وفي كفه يمسك التذاكر، مطلقا كلمة نعم بالإنجليزية بصوت عال (يس)، كأننا كنا في جبهة حرب وخرجنا بظفر مبين...

في تلك الأثناء ودعناهم لتكملة أشغالهم الإنسانية التي يشرعون بتقديمها في خدمة المهاجرين، شاكرين جهودهم الجبارة التي بذلوها بخصوصنا... وهو ذاهب لعمله قال لنا...

تذكروا؛ أن واجهتكم أية معضلة أو ضائقة أتصلوا بي..

شكرناه ثم ودعناه وأصحابه....

# القَدَرْ

كان حلمها أن تقتني عجلة خصوصية منذ أن تعينت في مدرستها الكائنة في قصبات المدينة على بعد 40 كم من مركز العاصمة، لتفك كربها بها وهي مرفوعة الرأس شامخة في ذاتها، لتنقذ ما تبقى من الإباء والكرامة من خطم التوسلات والاذلال الذي كنَّ يمارسنه معها زميلاتها المتمكنات اللاتي يجدنَّ ثقلا في مشوار توصيلها، هؤلاء النسوة اللاتي يُمَنن النفس على خدمتها واللاتي يملكن عجلات خاصة بهن.

خلال فترة معايشتهن؛ كانت تشعر بإحراج من أن تطلب المساعدة منهنَّ، لذا بقيت تقتصد في مصاريفها وتقصر عن ذاتها وعن حاجيات البيت بالتي لا تؤثر عن توازن الخط الذي تعيش به العائلة، لقد أقحمت ذاتها في عدد من الجمعيات التي تعمل على اقتصاد المصاريف لتوفير المبالغ التي يمكن أن تكون اساسا لمشاريع مستقبلية. بتلك الطرق تمكنت من أن تكون كحلقة وصل بين رغباتها وامنياتها والظرف المشين الذي حجم قدرها في علاقاتها بزميلاتها. تمكنت من وصف سريرية العلاقة بين ذاتها واقتصادها، حيث قللت من المظاهر والحاجات الشخصية التي تُعد من ضمن كماليات المرأة كمقتنيات التجميل وموديلات الفساتين

والحفلات والسهرات ....الخ من تلك المظاهر التي تَغرُ المرأة وتبهجها. كل همها انصب في خانة تدبير قيمة العجلة لتتمكن من الإفلات من أنفاس زميلاتها وتأوهاتهن، من أن تتمكن من شراء عجلة تفك أزمتها، لتكون سيدة ذاتها دون أن تكيلها الظروف على الانحناء للغير وتقريح الكرامة.

فترة ليست بالقصيرة امتدت لأكثر من سنة، تلك المدة بقيت فيها تعاني من ركود وسكون أمام عصف سلوك زميلاتها، وهي ذات الفترة التي قترت بها على نفسها وعلى أطفالها والبيت، حتى تمكنت من حسم أمرها بمساعدة زوجها الذي سندها بنصف قيمة العجلة إضافة لما تمكنت من تدبيره خلال تلك المرحلة.

هكذا صفا بها الزمن على تحمل حجم الشقاء بمراضاة النفس ومراعاة الظرف، تحت وقع تأثير سيف شقاء فرضه الزمن والظرف على رقبتها؛ حتى تمكنت من لضم خيط المسبحة بعد أنْ عصرت زنبيل الزمن في خطى رحلتها. أخيرا وصلت قمة مأربها، تمكنت من جمع قيمة العجلة بعد عناء وشقاء بها هجّنت الظرف والعقد في عصارة التحدي، أخيرا انبجست الفكرة عن مزن ما فاض به ذهنها نتيجة الشرود والتطفل والانف، تمكنت من جزل العقد في خوض التجربة، صارت لها قدرة على الاعتداد بالنفس والقيادة بشراء عجلة تنهي بها أزمتها.

تمعنت واحتارت بنوع العجلة، لكنها تمكنت من اقتناء عجلة تيويتا حمراء اللون تشبه شكل خنفساء صغيرة لتجري بها بالطرق الواسعة والضيقة على حد سواء، لتنسلت بها من الانفس البغيضة كيفما تشاء.

فرحت بها والعائلة بعد أن اقاموا لها مراسم استقبال بهيج بذبح خروف تحت العجلة ليجنبوها الكوارث والعين الحاسدة، بعد أن لطخت عجلتها بدم الخروف، الكل اشترك في كرنفال الفرح بعد أن زينوها بالورود والياس.

وفي أول جولة ودت أن تجرب ذاتها بها، في يوم مغبر وساعة مغلة، أخذت أطفالها وزوجها ليستمتعوا بها بجولة في شوارع مسقط العريضة، كانت هادئة جدا في جريها منتبهة، فطنة، يقظة، تبتعد عن المزاحمات، تتجنب الطرق الضيقة، خائفة من تراكيب قدر مجهول تراه في مخيلتها ينغص عليها فرحتها. مرتعبة من سقم الحوادث، مكترثة بكل صغيرة وكبيرة على مسار الطريق بشكل حرزي عال.. صاروا الاطفال ينادون عليها:.....

- ماما أسرعي، أنت بطيئة جدا...

الزوج بات يضحك ويستهزئ بسياقتها قائلا:...

- هذه هي سياقة النساء...هههههههههه.

فيما هي لم تعر لتلك الفوضى أية اعتبار، كان ذهنها شاردا خارج إطار العجلة وهي تسابق فوضى العائلة في الحذر

والانتباه والهدوء والابعاد، لم تنظر إلى ما كانوا ينظرون اليه قط، تعدت حالة الجدل الغثاثة التي تعرضت لها، لم تبدي تأثرا واهتماما بالفوضى التي أحدثوها داخل العجلة، لأنها لم تكن في تلك اللحظة داخل العجلة ككيان أنما كجسد فقط، كان فكرها منصب على جادة الطريق ومفاجآته، على علامات المرور وتحديد السرعة، على إشارات المرور ومصائد الرادار المبثوثة هنا وهناك والمخفية عن الاعين في ثنايا الطرق، هؤلاء الذين يتفننون في إخفائها، كثيرا ما يضعون كامرة الرادار متحركة في أماكن غير متوقعة، مغشية بين أوراق الأشجار أو مثبتة على جذع نخلة أو مربوطة بعمود كهرباء لا تسترعي الانتباه، بحيث لا ينتبه عليها السائق، ناهيك عن تلك المصائد الثابتة والتي توضع بمسافات محددة على الشارع العام.

كونها مبتدئة في السياقة، ذلك يتطلب منها بذل مجهود اكبر في تجاوز المعرقلات، تحتاج لزمن أطول في أن تلم بخفايا الشوارع وغزي شرطة المرور، يقال بأن الشرطي الذي يستطيع ان يسجل مخالفة لعميل ما؛ فأنه يهب حصة 25% من قيمة المخالفة، لذا تجدهم يتزمتون في فرض المخالفة دون مرحمة؛ حتى لوكان السائق بريئا. المهم تسجل عليه المخالفة ويقبض الفائدة.

المهم في نهاية الجولة وقبل أن يعودوا للبيت، وفي آخر منعطف للشارع قبل مدخل البيت، وفي منطقة العبور المحددة بخطوط بيضاء؛ ود كلب عبور الشارع، بعد أن

تجاوز نصف الشارع عاد وتراجع الى نقطة البداية بعد أن شاهد عجلة حمراء قادمة ليتفادى الاصطدام بها – السيدة وداد أصابها ما أصاب الكلب – حين شاهدت الكلب قطع نصف المسافة خافت أن تصطدم به، ولتلافي الموقف وإفساح مجالا له ليعبر؛ توقفت وقوفا مفاجئا على بعد ثلاثة أمتار عن خطوط العبور البيضاء، وقفت في مأمن من الخطر، كانت على دراية كاملة بمحيط العجلة، وبتلك بالعجلة التي تتبعها عن بعد، بحيث لا توجد حالة تجبرها على العجلة والتصرف الأهوج، اقرب عجلة إليها تبعد عنها بمسافة خمسين مترا.

مع وقوفها كانت العجلة الخلفية انتبهت عليها فتوقفت خلفها على بعد مسافة 30 مترا تقريبا، إلا أن كان هناك رجل بدين يمتطي دراجة نارية، غير منتبه على المشهد نهائيا، قادما من الخلف بسرعة تقارب 70 كلم \الساعة. كان يبدو عبثيا، أو سكرانا، أو بليدا ومن هذا القبيل، بحيث بقي يجري بذات السرعة دون أن يعير اهمية لما أمامه، دون أن يدرك ما حوله وما خلفه، لينحرف بتلك السرعة يمينا بزاوية عشرة درجات حتى يصطدم بعجلة التيوتا الحمراء من الخلف. كانت ردة الفعل المعاكسة للصدمة قوية جدا، بحيث رفعت ذلك البدين من فوق دراجته ليتشقلب في الهواء شقلبة ومن ثم يسقط على عجيزه على زجاج العجلة الامامية ليهشمها، ليحطم الزجاج في أحضانهم، العائلة التي اصيبت بالدهشة، ما أن التفتت للخلف لتعرف ما حصل بعد لحظة الاصطدام؛

حتى تحطم الزجاج الأمامي بحضنها، وكأنها تعرضت لهجوم مباغت. كانه كتلة نيزك هبطت من السماء على حين غفلة.

ترى ماذا جرى؟ العجلة متوقفة على إشارة المرور، الامور هادئة وكل شيء على ما يرام، حتى وقع المحظور حين أرتجت العجلة على حين غفلة تحت جلجلة أحيطت بهم. لكن من أين نزل ذلك البدين بثقله، ليحطم الزجاجة الامامية للعجلة ويطعج ويعوج غطاء المحرك ( البونيد)، أية قسمة هذه التي كافأت شقائهم وأرعبتهم. تناثر هشيم الزجاج في أحضانهم، الكل صرخ بأعلى صوته:.....

- يا الله سترك..

تملكهم الخوف الى جانب حزن كتم على انفاسهم، أما وداد كادت أن يغمى عليها نتيجة الصدمة، هذا نصيبهم وهم في أول جولة ترفيهية يخرجون بالعجلة.

اما الرجل البدين الذي بات يصرخ من الالم الذي أصاب عصعوصه نتيجة شدة اصطدامه بزجاج العجلة، أخذ يستند على إطار الخارجي للزجاج، محاولا سحب عجيزه من الفتحة التي احدثها بها، ليزيح بدنه عن العجلة الى الارض.

نزل مبهوتا، مرعوبا، نزل بهدوء وهو يمسك ظهره دون أن يتمكن من الوقوف على قدميه.. حينها نزلت وداد وزوجها وهم يصرخون في وجهه، في دهشة مما حصل...

- من أنت؟ أأنت يا أعمى، ألا ترى العجلة واقفة أمام منطقة العبور؟ من أين أتيت؟

أجابهم بألم وحرج؛...

- أنه مصدوم مما حدث، الأمر خارج إرادته، أنه قدر أعمي بصره وبصيرته، لم يكن منتبها على عجلة التيوتا، لا يدرك كيف حصل الحادث....

قبل الحادث كان يعيش في لحظات تيه وشطط، نتيجة عقدة المت بأبنته بعد أن طلقها زوجها نتيجة خيانتها له – تلك الدوامة سرقته من واقعه لواقع العقدة فبقي يجري وفكره مشغول بها وبما سيجري وكيف ستؤول نهايتها؟

تلك الامور أذهبت عقله، بقي شاردا في عمق العقدة ولعنة الشرف والسمعة التي ستجري عليه، ذلك الانتقام الذي سيبديه المجتمع ضده دون أن يقترف ذنبه، ود أن يضع يده على الحقيقة قبل أن يتصرف تصرفا أهوجا – تلك الدوامة سرقته من عالمه لعالم خطى أبنته وخطأها، فلم ينتبه على عجلة التيوتا التي كانت واقفة أمامه، ليصطدم بها من الخلف ويشطر صندوقها الخلفي لنصفين، ليحطم زجاجها وغطاء محرك العجلة.

هذا ما جرى، وكأن الكلب لم يكن كلبا، أنما شيطان الحسد تجسد بهيئة كلب، ليرهق السيدة وداد ويشغل بالها بالمحيط، أنه القدر والحظ والبخت الذي كانت تحاول أن تهرب منه،

لكنــه كــان يبحــث عنهــا فــي الشــوارع وبــين عيــون النــاس وزميلات المدرسة.

وقال الشافعي:.....

**دع الأيام تفعل ما تشاء**

**وطب نفسا بما حكم القضاء**

**ولا تجزع لحادثة الليالي**

**فما لحوادث الدنيا بقاء**

**وكن رجلا على الأهوال جلدا**

**وشيمتك المروة والوفاء**

# الكوب

فينوكر/ 2018

كان أنس لايزال يعيش على الفطرة، لم يبلغ رشده، في طور المراهقة بعمر أربعة عشرة سنة، في فترة البناء والترقب، في هذا الفترة الحرجة صاحب شاب من عمره يدعى أحمد الصومالي، كان طالبا كسولا معه في صفه، جمعتهم صفة الهجرة.

كان أحمد قد أكتشف ذكاء ونباهة أنس في اللغة السويدية والرياضيات والعلوم، لذا التصق به، تقرب منه، جعله صديقه المفضل، صار لا يفارق ظله، خاصة حين وجد فيه منهلا يعينه على إدراك مبتغاه من الدروس التي يعاني منها.

بعد أن آزره الظرف وجمعهم في صف مشترك، أكتشف نوعية خامته الغريبة وصفاء معدنه، أكتشف براءته وقلة تجاربه، وجد فيه اختلافا كليا عن صفاته وصفاة شلة أصدقائه. لذا ود استغلاله هذه البراءة في عملية سرقة وابتزاز دون أن يعلمه بالنية...

أما أنس كان قد وثق بصاحبه وثوقا أعمى، سايره على أهوائه في مرافق المدينة دون تشكيك في نوايا صاحبه وسلوكه، سايره لمجرد الرغبة في إذابة جليد الوحدة التي يعاني منها.

كـان قـد هجـس بـه مفتاحـا لسـعادته، منظمـا لأفكـاره، بلسـما لوحدتـه، رفيقـا لسـراطه. وجـد ذاتـه بحاجـة لتكملـة مـا ينقصـه مـن تجـارب، ليعـيش حالـة تجديـد وتغييـر بعـد أن كـان يعتمـد علـى والديـه فـي إدارة سـلوكه ونظـام حياتـه، حتـى أنـه كـان لا يتخذ قرارا إلا بعد استشارتي.

مـرت الأيـام دون تغييـر فـي نمـط علاقتـه بأحمـد، حتـى أنـي كنـت سـعيدا بسـعادته وتغييـر أجوائـه؛ حتـى اليـوم الـذي بـه انكسـرت الجـرة، كـان ذلـك حـين طلـب أحمـد مـن أنـس مرافقتـه لجمعيـة الكـوب القريبـة مـن المدرسـة، مسـتغلين أحـدى الحصـص الشـاغرة لشـراء بعـض الحاجيـات، فـي الوقـت الـذي بـه يشـغلون أنفسهم بالتخوير والمرح، علما المدارس غير مسيجة.

بـالطبع أنـس لـم يمـانع طلـب صـديقه أحمـد، حيـث وجـد فـي اختيـاره فرصـة لتلطيـف الأجـواء مـع أنـه تجـاوز علـى حسـاب وصـيتي لـه بعـدم مغـادرة المدرسـة لأي سـبب كـان. تصـرفه الغيـر مسـؤول أعتبـر كسـرا لأبجديـة تعهداتـه لـي، بعـد أن شـددت عليـه مـرارا الالتـزام بهـا، كـي لا يقـع فـي مطبـات الفوضـى التـي لا يعـرف حجـم تأثيراتهـا. خاصـة أبنيـة المـدارس لا تحيطهـا أسـيجة تجبـر التلاميـذ علـى المكـوث فـي المدرسـة، ولا توجـد رقابـة مفروضـة مـن الإدارة علـى التلاميـذ، حيـث ينتهي دور المعلم بانتهاء الحصة داخل الصف.

حينهـا دخـل فـي صـراع مـع نفسـه، بـين مخالفـة أوامـري وطاعـة صـديقه. فمـن بـاب المجاملـة وأثبـات الشخصـية طـاوع

رغبة صديقه، ذهبا معا لمتجر الكوب برفقة أثنين آخرين من زملائهم أحدهما أفغاني والآخر سويدي، ذهبوا وكل ظنه بأن أحمد يود أن يقتني بعض المستلزمات من الكوب.

حين دخلوا المتجر كان أنس يتبع أحمد، حاملا على ظهره حقيبته المدرسية، وفي داخل المتجر طلب أحمد منه أن يضع بعض مقتنياته في حقيبته، وبعد أن أنتقى بعض الأشياء همَّ بالخروج دون أن يدفع ثمنها، تاركا أنس يسير خلفه....

بدخولهم المتجر كان الكاشير يراقب تحركاتهم من خلال الكاميرات، حينها شك الكاشير (المحاسب) بنياتهم. في الوقت الذي به كان قد تملص أحمد وهرب قبل أن يحجزه ويحقق معه الكاشير؛ فوجئ أنس بهروب أحمد وعدم دفع قيمة الأشياء المنتقاة، لقد أوقعه في مصيدة الكامرة التي رصدت حركاتهم، وسط دهشة أنس. بذلك كبل بسرقة بعض العصائر وشريط حلويات قيمتها لا تتجاوز سبعة دولارات.

ما حصل هو الآتي....

أراد أحمد أن ينفذ عملية السرقة بتحميل أنس وزرها، بعد أن لمس فيه طيبة وبراءة عمياء وغشم لقلة تجاربه، ما يجعله غير منتبه على سلوكيات غيره، مستغلا حقيبته المحمولة على ظهره.. وكان قد أعتبر تلك العملية من وجهة نظره أحمد شطارة، لعبة يورط بها زميله..

في الحقيقة لم يكن أنس قد مر بتجارب خبث كهذه، لم يكن سوى قدر جميل تدحرج في طريقي، وددته، احتضنته، تأملته، جعلته حلما جميلا يتغنى بمستقبلي. لم يكن سوى طيرا مهاجرا سكن هوسي وصمتي، هفا في غربة ظني، عشعش في فكري وقلبي، صار قدري وسري، وقوتي وضعفي وهواني...

كبر الحلم مع مر السنين، صار نطيطا على أغصان وجدي دون رفقة، وحيدا، تأمل الورود البهيجة والرياحين العبقة، أكتسب منها صفاته وسلوكه وطيبته وبراءته، صار لغزا يدور في أروقة ذاتي. صار برعما يمتد على اسطر حياتي، عكفت على ترتيب أحجية ذهنه، اهتممت بتفاصيل حياته، حتى نما وارتقى الألق سلما سلما، فبان بزهده وعفته نجما ساطعا بين أقرانه.

مع مرور الأيام؛ بان في فوضى الأجواء كشعلة من الطيب والوله، استقطب رفاقه بشذى طيبه وعطره، بلسانه وقلبه وصدقه، أثر فيهم، وتأثر بهم، حتى وجد في كأس تلك العلاقات الآنية شوائب خبث ونوايا مكر وخديعة مرة.

كانت علاقاته شفافة من جانبه، لذا تقربوا منه لشطارته وتفوقه في دراسته. لم يتحسس تلك اللزوجة من تلك العلاقة المزيفة إلا متأخرا، لإندفاعه نحوهم بشدة نتيجة الوحدة التي عزلته، تشبث بهم بنية طرد الكآبة من أجوائه، فلم يشم من

تلـك العلاقـات سـوى نتانـة الصـحبة وخبـث النيـات، حتـى غـز بأشواكهم، لقلة خبرته وتجاربه.

كـان ولـم يـزل قطعـة قمـاش خـام بيضـاء، لـم تتوسـخ بـالمحيط، لـمْ يجلـده الـزمن، لـم تـزكم أنفـه غبـرة الظـروف المتعاقبـة. بقيـت تلـك الطبـاع متشـبثة بـه، بقيـت صـفاته علـى مـا هـي، نجيبـة، كريمـة، يسـودها سـحر الخجـل، بريئـا، سلسـا، هادئـا، ربمـا الوحـدة كـورت طباعـه، فبـان اليفـا، صـادقا، يجـول بـين فكـره ولغز اصحابه.

تلـك الوحـدة رغـم قسـوتها جردتـه مـن عقـدة الخبـث والرذيلـة والأنانيـة، لمـا فيهـا مـن عطفـة غـرة، هذبتـه، جعلـت منـه صـورة ترتقـي لمصـاف الحلـم المـراد، منعتـه مـن الانـزلاق فـي أزقـة العبـث والفجـور والفسـوق وأخـذ المنشـطات وحبـوب الكبسـلة، قومـت سـلوكه، أرشـقت قوامـه الشخصـية بشـيء مـن الصـفاء واللـين والـدين، بعيـدا عـن المخاشـنة والمكـابرة. جعلـت طينتـه اللدنـة صلصـال عذوبـة ورقـة، جعلـت صـبره يطـاوع جلـد الظرف بقدرية الحالة.

كـان قـد حـاول مـن جانبـه كسـر حـاجز الـروتين، بحثـا عـن صـداقات خـارج أسـوار وحدتـه، صـداقات كيفمـا يشـاء الظـرف، لتبعـث فيـه طاقـة إضـافية تكشـط ذلـك السـكون مـن محيطـه، تنقلـه لدائرة التكوين والحركة والشخصية، لإبراز مفاتنه.

بتلـك الإجـراءات خـرج عـن إطـاره المـألوف، تمكـن مـن كسـر حـاجز الوحـدة والغربـة التـي كـان يعـيش ظرفهـا مجبـرا، كنـت

أشجعه على تلك الصيغ لتجنب أمراض العصر والتوحد، تلك التي قد تؤدي به إلى العقد. رغبت أن يسلك المسالك الطبيعية لتتفتح أزاهيره بألوان الطيف والتجديد، تضفي على سماته شطر الرقي، تسمو به وبأفكاره إلى مراتب إعداد الذات على ضوء الدراسة والشخصية..

كنت أخاف عليه من شزر العقد النفسية، التي لا يدرك مخطرها إذا ما تجرد بسلوكه عن مداهنة المجتمع.... الشيء المفرح به، له قابلية على الاختلاط والاندماج السريع، كان مهووسا بالرفقة والصحبة، محبا للتجاذبات والتحاور منذ صغره، كأنَّ هناك من يرشده إليها بالفطرة.

بعد تلك الحادثة أحيل إلى عدالة المحكمة. لكونه قاصرا؛ عضدته المحكمة بمحام صوري، لم يتدخل في شأن القضية بتاتا، رغم اطلاعه عل ملابسات القضية.

بعد أن سقط كالطير في شباك أحمد، تكالبت عليه المطارق، على الرغم من أنه لم يلمس تلك الاشياء المسروقة بيديه. طالبه القاضي والمحامي انتقاء أصدقائه بعناية، وأن يتعلم الدرس ولا يساير الخبيثون والمتسولون منهم.

حكم عليه بغرامة مالية قدرها 50 دولارا وتحذير بإنزال أشد العقوبة في حقه في حالة التكرار.

# الكرة

بحدود الساعة الثامنة والنصف صباحا رنَّ هاتفي بتكرار دون هوادة، كأنَّ هناك خبر جلل ما يبغينِ سماعه، أو أمر ما مهم ينتظرني، إلى ما شابه ذلك من أمور الدنيا التي لا تحصى. وأنا في غر منامي وفي غر أحلامي كنت أشعر بعجز تام يكبل أوصال جسدي، نتيجة الكسل الرائب في ثنايا الجسد جراء سهودي ليلة أمس في متابعة بطولة أوربا لكرة القدم. ذلك العجز أثقل فكري وقيد ساقيَّ، منعني من النهوض والتحرر للرد على من كان يهاتفني بالوقت المناسب.

وما أن استعدت وعيي وفتحت الهاتف؛ حتى وجدت سيلا من الرسائل والمكالمات الملحة من صاحبي هشام لم أرد عليه. لذا ضغطت على أسمه وفتحت خط الاتصال لمعرفة حيثيات الأمر المهم الذي شغلني به، والذي دفعه لمهاتفتي في هذه الاوقات المبكرة من اليوم....ما أن رن الهاتف حتى ناديته قائلا له:...

- خيرا يا هشام؟ طماني، ما الأمر المهم الذي يجعلك تهاتفني بهذا الوقت المبكر ونحن كنا في سهرة مشتركة يوم أمس؟ لقد شغلت بالي، أقلقتني. هل حدث لك مكروها ما لا سامح الله، بحيث لم يمهلك تأجيل المكالمة ساعة أو ساعتي زمن؟.

- لالالا أطمأن، كل الأمور بخير والحمد لله.. لكني لا يمكن تأجيل المكالمة، أنه أمر مهم جدا، أودك أن تحضر للمحل قبل الساعة العاشرة صباحا، حيث أني على موعد مع حبيبتي أنكا، لقد طلبت مقابلتي ولابد أن أكون متواجدا في الموعد. لا يوجد من أثق به اكثر منك، أرجو أن لا تتأخر.. لقد أخبرتني بأنها سوف لن تذهب للجامعة اليوم من أجل لقائي، تنتظرني بشوق، ولا أريد أن أغلق المحل كنت قد تعهدت لبعض الزبائن بالحضور، أرجو أن لا تخذلني.....
- أطمأن، إذا كانت الأمور بهذه الأهمية والجدية؛ فأني أراك محقا بسلوكك الأرعن، سأكون حاضرا عندك قبل العاشرة، وما لك سوى الدلال.
- شكرا لك يا صديقي الوفي.

لم يقل يا صديقي العزيز، وكأني حين أعنيته بالأرعن عاد ووصفني بالوفي، في تلك كناية قصد بها حالة الكلب الوفي، فلا هو بريء من وصفه ولا متهم به. لكن تلك الامور أضحت شبه مستعارة بيننا، كالعجينة نلجأ اليها وقت الشدة والمزح، أخبزه يوما ويخبزنِ يوما، كأني لم أقل شيئا ولم أسمع لجاجة القدح، لحجم العلاقة الوطيدة التي تجمعنا.

إذا طلب أن أحضر لمحله، لأعوض وجوده فترة زمنية قصيرة حتى يتمم لقائه مع حبيبته، " أرجو أن تأتي للمحل قبل العاشرة صباحا"، تلك العبارة تحمل في مضمونها خطة

جنوحه وجنونه، انتبهت عليها، قرأتها لما ود أخباري بمهاتفته. ودني أن أفك زنقته وأسهل عليه أمره، فالمثل يقول" الصديق وقت الضيق".

إذا عليَّ أن أدير محله خلال غيابه، أن أسلك أمر بيع الحاجيات لغاية قضاء مشواره، حيث الحاجات المعروضة في المحل بشكل عام هي مسعرة، فلا عقد في أمر البيع ولست بحاجة للخبرة لكثرة معاشرتي له.

كان قد لمح لي في مهاتفته، بأنه على موعد مهم مع عشيقته الشقراء التي سوف تتخلف عن حضورها للجامعة من أجل الفوز بلقائه. كان قد تحدث لي عنها سابقا، أوضح رغبته بالزواج منها، ذاك هو مغزى القصيد. تلك الاشواق والشبق أجبرتها على النكوص أمام إرهاصاته لكبح جماحها. هكذا هو جنون الحب؛ غرز قلوب العشاق بسهم الوجد ونيران النجوى...

خرجت من البيت تمام الساعة التاسعة متجها لمحله الذي لا يبعد عن سكني سوى مشوار نصف ساعة سيرا على الأقدام إذا ما سلكت الطريق العام لغاية محله، ويبعد مسافة ربع ساعة إذا ما اختصرت مسلك الطريق باستخدام أفرع الأزقة، قاطعا المشوار بين ثنايات الدروب المؤدية إليه... لقد فضلت اختصار الطريق رغم وعورته في أماكن معينة، لتشعب الأشواك والعاقول الطبيعية المنبثة هنا وهناك بالإضافة

لغرين الطين المستمر في ظل أجواء ساكسونيا التي لا يكف عنها المطر.

وأنا سائر باتجاه المحل مارا بين الأزقة الضيقة لبعض البنايات الشاهقة، والتي بعض ممراتها تكاد تكون ضيقة جدا لا تتجاوز عرضها مترا أو مترين من المسافة المحصورة بين جدران البنايات، فإذا ما شب حريق في أحداها؛ فأنها ستنتقل بالتأكيد لجارتها الملتصقة بها. وكأنَّ هناك سوء تخيط أو استغلال عبثي للمساحة من قبل المالك ..الخ من هذا القبيل.

وفي أحدى الممرات وفي زاوية ما، صادفتني كرة صغيرة زرقاء مطروحة في نهاية عمود نور. لولعي بلعبة الكرة، ركلتها بالقدم ركلة قوية، أعدت بذلك ذاتي لذكريات الطفولة والصِبا، حين كنت أشارك رفاقي برغبة لعبتها.

وما أن ضربت الكرة حتى شعرت بها فيها شيء من القسوة والغلاظة، وكأنها ليست كرة عادية، حيث دب ألم شفيف في مفاصل أصابع القدم. ثم أن الكرة لم تفل من مكانها، بقيت ملتصقة بعمود النور، كانت معشقة بشبكة خيوط قوية مرتبطة بالعمود كخيوط صيد السمك عديمة اللون. لذا لم أبالي بها وكأن الأطفال تركوها في هذا المكان ليعودوا إليها متى ما شاءوا اللعب، وخاصة موضوعة خلف بناية جانبية قرب فسحة جيدة لممارسة لعبة الكرة.

وصلت إلى المحل قرابة الساعة التاسعة والنصف، حينها أستأذن مني هشام مودعا على أن يعود خلال ثلاث ساعات، وذلك بعد أن قبل خديَّ عرفانا لاستجابتي طلبه سريعا. كان قد قرأ عليَّ بعض التوصيات بما يخص عملية بيع بعض المواد قبل أن يخرج من البقالة.

كان في تهيئته أنيقا، جذلا، معتنيا بذاته، وكأنه ذاهب لحفلة عرس. لِمَ لا وهو ذلك الشاب الوسيم بلحية شفيفة سوداء، يرتدي قميصا قطنيا ناصع البياض، ليوائم بنطلون الجنس الرمادي اللون.

مع دخولي المحل، شعرت به أزداد زحاما مع مرور الوقت. صارت تامه زبائن كثر، وكأنَّ دخولي إليه جاء بالخير والبركة. حتى أني صرت لا أستطيع احتواء الزبائن بمفردي، قبل أن تحضر دوكانا الجميلة لتساعدني في عملية البيع. حينها كان هشام قد تأخر عن موعد عودته قرابة ساعة زمن إضافية، فلم يرجع من مشواره إلا بعد أن تجاوزت الساعة الرابعة بعد الظهر.

خلال تلك الفترة كنت قد بعت مجمل حاجات المحل؛ حتى كاد يفضي المحل من مخزونه. كنت أستغرب تلك الزحمة الغير معهودة على المحل مع ولوجي إليه، صرت لا أستطيع متابعة الزبائن بعد أن انشغلت بمحاسبة المشترين على قاصة الكاشير، وكأن الاسواق الأخرى أغلقت ابوابها.

لقد بعت كل ما معروض في المحل من خضروات وفواكه، صرفت البطاطا والطماطم والباذنجان والكوسا والباميه والقرنبيط والبروكلي والخيار بالإضافة للخضرة من جزر وبصل وبقدونس وكرفس وجرجير ورشاد واشياء أخرى معلبة، ...الخ، وأفخاذ الدجاج والزيتون والعنب والبرتقال والليمون والأفوكادو والمنجا والتفاح والخبز والدهون والحبوب من رز وفاصوليا ولوبيا والعدس والحمص والبهارات والزيوت بأنواعها.

كان ذلك اليوم مشوبا، كأن الغيوم قد قشعت عن سماء كيمنتس، أضحت أشعة الشمس تلسع البشر، فالتهبت الأرض والاجساد بحرارتها. لذا وجدت الناس تتهافت على شراء المشروبات الغازية والعصائر والمياه المعدنية المتواجدة في الثلاجة وتلك التي خارجها. أكاد أجزم بأني قد صرفت 90% من بضاعة المحل خلال أربعة ساعات التي قضيتها في المحل؛ فلولا حضور دوكانا الجميلة التي جاءت بعد ساعة من عملي إلى المحل؛ لما كنت أستطيع تمشية الأمور بسلاسة، كانت قد حضرت للمحل صدفة لتتبضع؛ حتى وجدتني منشغلا فيه وحيدا، فطلبت منها البقاء إلى جانبي لمساعدتي في تسيير أمور الزبائن بعد ان حجزت رغباتها التي جاءت من أجلها.

وأنا في غر انشغالي دخل علي رجل غريب لا أعرفه يسأل عن هشام، أدعى أنه جاره وأسمه ماثيوس، أخبرته بأنه سوف يعود خلال ساعتي زمن.

مـا أفرحنـي حضـور دوكانـا بالصـدفة ودون موعـد للمحـل، تلـك الفتـاة الجميلـة التـي أعشـق سـمرتها وحسـن ملامحهـا، التـي افتقـدتها بعـد أن تـم نقلـي لمدينـة كيمنـتس مـن الكامـب الـذي تعرفت بـه عليهـا. كنـت قد شـغفتُ بهـا مثلمـا شـغفتْ بـي، فهـي لا تصـغرني سـوى بـثلاث سـنوات فقـط. حينهـا لـم نتجـاذب الحـديث بشكل علني، لكننا كنا متوافقين في الغاية والنظرة والهدف.

لـذا مـا أن دخلـت البقالـة حتـى فرشـت لهـا كرسـيا بجـانبي لتسـاعدني فـي الحسـاب وتصـريف الحاجـات بعـد أن وضـحت لهـا سـبب وجـودي. فتحـت لهـا قـارورة بيبسـي إلـى جانـب علبـة عصـير برتقـال ركنتهـا جانبـا لـي ولهـا. وبعـد أن فـض المحـل مـن معظـم مخزونـه، تركـت فـي الواجهـة قطعـة تشـير إلـى المحل مغلق لأنفرد بدوكانا.

حينها سألتني أأنت تعمل هنا؟

- لا...أنـه محـل صـاحبي، وهـو ذهـب بمشـوار وسـيعود بعد ساعة أو أكثر.

ثم سألتني باندهاش:...

- لِـمَ هـذا المحـل الوحيـد الـذي فيـه كهربـاء؟، محـلات السـوق كلهـا مطفيـة أنوارهـا، أجـزم بـأن جميعهـا قـد أغلقت ابوابها.
- لا أدري مـاذا تقصـدين؟ حـين يعـود هشـام سنسـأله عـن مصدر كهربائه، لا علم لي بذلك.

على أية حال أني سعيد بلقائك بعد غياب دام أشهر، حينها كنت أود أن أصارحك بما يجيش في قلبي، غير أن الظرف لم يسمح لنا، وخاصة أعين الشباب كانت تراقبك بعيون الصقر، كنت أخشى عليك من خبثهم.

- انا أيضا كنت أتأملك، لأنك تختلف عن هؤلاء الشلة المنحرفة، هذا إلى جانب أنك أبن بلدي، أي مرجعنا سيكون بلدنا شئنا أم أبينا.
- حسنا يا دوكانا، أنا أحبك وأرغب بإعلان خطوبتنا الآن، وغدا نرتب أمورنا مع الأهل والأحباب، ما رأيك؟
- المشاعر متقاربة وأنا سعيدة بك وأقول لك أحبك.

صارت تبتسم ابتسامة مشحونة بالعاطفة، مشرقة، فيها الق وشوق وصبابة، فتحت لي أبواب قلبها فحضنتها بغنج ثم قبلتها من خدها حتى أحمرت وجناتها، صارت تميل إلى جانبي بذات الشوق والشبق، حتى ذبنا في لاعج الهوى كقطعة سكر.

وكأنَّ نسالة من لفيف شعرها علقت بشعري نتيجة التلاحم الذي وضع حلمنا على جادة الطريق، أعدنا لأنفسنا تأملنا وبسمتنا. فلم نشعر إلا وهشام كالصقر حلَّ فوق رؤوسنا، مستغربا من حالة البقالة التي تبدوا للناظر كأنها سرقت عن بكرة ابيه..

كأنه بدخوله علينا كشف الغطاء عنا وعر محبتنا للملأ، حينها سألني والدهشة بائنة على محياه:...

- أين بضاعة المحل يا فارس؟
- بعتها كلها...

بانت على وجهه ابتسامة استغراب شفيفة..

- هذا غير معقول، ما بعت من حاجات تحتاج لشهر من الزمن، كيف صرفتها خلال ساعتين؟ شيء مدهش، وكأنَّ رجلك ذا فأل خير وبركة.
- لولا دوكانا التي بذلت جهدا مضنيا في مساعدتي ما كنت قد فلحتُ، وجدتها برفقتي كالنحلة في أتباب الأمور، تحملت مشاق الزبائن وعبثهم من أجل تصريف البضاعة. هذه هي التي كانت تشغل بالي، جعلتني أعشقها وأتمناها من نظرة، وقد أعلنّا خطوبتنا، وأنت أول من نسره الخبر..
- مبروك والف مبروك لكما، وبهذه المناسبة ستكونا ضيفي على العشاء في أفخم مطعم. شكرا لك و لـ دوكانا الجميلة، أتمنى لكم حياة سعيدة، وأنا في خدمتكم في تسهيل أمر زواجكم بأذنه تعالى. كأنك أغششتني يا فارس، من أين لك هذه الفاتنة؟ النادرة، والتي كل من يراها يغص في سحر مفاتنها.
- هههههه شكرا لك، أنها ورقة اليانصيب التي ربحتها في مشوار حياتي.

- مبروك عليك..
- شكرا لك، أخبرني يا هشام؛ كانت دوكانا قد أخبرتني بأن السوق كله مظلم، قطع عنه التيار الكهربائي إلا محلك! .. كيف؟
- هههه، لان الكهرباء في محلي مسحوبا من البيت وليس من خط السوق العام.
- هههههههههههه يا ثعلب، أحسنت الفعل.....

وقبل أن نخرج من المحل، دخل علينا ذلك الرجل الذي يدعى ماثيوس والذي جاء يسأل عن هشام، أنه جاره صاحب محل المواد الطازجة والمثلجات وهو ممتقع الوجه، غاضب، يشير إلى هشام بأصبع الاتهام، قائلا له وبعصبية:.....

- شخص ما خبيث، عبث بكرة الجوزة وفصل القابس عن السوق، وبذلك قطع التيار الكهربائي عن محلات السوق قاطبة، هذا عمل أطفال مقصود... في إشارة منه يتهم بها هاشم، دون أن يفقه هشام حقيقة قصده.

حين سمعته؛ غلستُ في صمت مودعا هشام، مبتسما في داخلي دون أن أنبس بشفة، إذا تلك الكرة الزرقاء التي عبثت بها، ما هي إلا جوزة الكهرباء الرابطة بين المصدر الرئيسي والسوق بذلك القابس الذي يغذي خط السوق بالتيار الكهربائي.

والظاهر خلال عبثي بها وركلي الكرة؛ فصلت القابس عن الجوزة؛ وبقيت تلك الكرة مشدودة إلى عمود النور بشبكة

مــن نــايلونٍ عديمــة اللــون. بانفصــال التيــار توقفــت أجهــزة الحسابات في المحلات، وبذلك شلت قدراتها عن العمل.

كـان ذلـك العبـث دون قصـد منـي، ولكنـه جـاء بفائـدة كبيـرة لـي ولهشـام، فائـدة تصـريف البضـاعة، ولقـائي بــ دوكانـا التـي كنـت اطـارد شـكلها فـي مخيلتـي وأتأملهـا فـي نفسـي، باحثـا عنهـا فـي وجوه الناس، دون أن أجد وسيلة توصلني بها...

كما يقول المتنبي:...

**مصائب قوم عند قوم فوائد.**

# النهاية

للكاتب ستة عشرة كتابا بين رواية ومجموعات قصصية

**المجموعات القصصية:-**

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب

**مجموعة الروايات:-**

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة من العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- نقط الحروف
9- الاقدام المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- الفراغ
12- صور مضيئة

لوحة تعبيرية جسدت حالة الفتاة وهي تشقى في تجاوز محنة الرزق وجمود الحياة بإصرار، بذا كأنه شكل مقارنة وهمية بين عمرها الفتي وقسوة الظرف.. إلى جانب إصرار الفتاة أوضح زحف أمل يوازي طموحاتها، حلم تراه مغروس في الطبيعة كمقاومة الشجر ذاك الظرف، والجربوع الذي يزحف بخطاها خلف البنت، كانه يتبع حيويتها التي فرضتها على الطبيعة في تلك البؤرة المنعزلة. كأنه غرَّ بفتنة الحياة وجسد تلك الفاتنة..

كان الرسام قد أصرَّ إلى إبراز مواضع الفتن، ليدهش الناظر بقوة بصيرته، وضع اللغز في صرة الهدف، جعل المشاهد يغور في الفكرة التي تجتمع عليها الأفكار الاخرى، ليرتقي بالمشهد إلى البلاغة، ود جعل المشاهد عنصرا من عناصر اللوحة، ليتجاوز الفكرة بالمغازلة الحية.